ت. ا. م. جود

قصة الحضارة

ترجمة

محمد بدران

الكتاب: قصة الحضارة

الكاتب: ت. ا. م. جود

ترجمة : مُحَمَّد بدران

الطبعة: ٢٠٢٢

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة - جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www. bookapa.com E-mail: info@bookapa.com

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة: لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

جود، ت. ا. م.

قصة الحضارة / ت. ا. م. جود, ترجمة : مُحَمَّد بدران

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١٣٩ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولي: ٠ – ٣١٠ – ٩٩١ – ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ١٩٧٤٩ / ٢٠٢١

قصة الحضارة

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

مقدمة الترجمة

مؤلف هذا الكتاب عالم نفسانى معروف من علماء هذا الجيل، وقد أعجبني في كتابه هذا موضوعه وطريقة بحثه. فأما موضوعه فهو قصة الحضارة القائمة في هذه الأيام، وقد تناول الكاتب فيه أهم معالمها وشرح عيوبها وفضائلها شرحا نزيها، فلم يتحيز لها ولم يظلمها، وبين ما تتعرض له من الأخطار، ودلنا على الطريقة التي نتقيها بها. وقد أغفل في هذه القصة ما ليس من مقومات الحضارة كتاريخ الملوك والقواد والفتوح والحروب، واقتصر على ما هو من صميمها.

وأما عن طريقة بحثه فقد أخذ المؤلف على نفسه أن يبسط الموضوع إلى أقصى حد. فالكتاب وإن لم يخل من كثير من الحقائق والنظريات العلمية الحديثة، سهل يستطيع القارئ العادي والطالب الذي بدأ المرحلة الثانوية أن يستوعب كل ما فيه. ولما كان الكتاب قد طبع في عام ١٩٣٦ فقد خلا من الإشارة إلى الحرب العالمية الأولى وإلى أثرها في مدنيتنا الحاضرة، ولذلك أضفت إليه من عندي فقرات قليلة رغبة في أن أجعله وافي بالغرض قدر المستطاع. كذلك رأيت أن أضيف إليه عددا قليلا من الصفحات

عن الحضارة المصرية القديمة وعن أثر العرب والإسلام في حضارة العالم، لأن الكاتب أغفل هاتين الحضارتين. وقد أشرت إلى ذلك كله في موضعه. فوضعت ما أضفت بين قوسين [ ] أما فيما عدا هذا الكتاب ترجمة دقيقة لكتاب چود. وأرجو أن يجد فيه قراؤه فائدة ومتعة.

المترجم

تمهيد

١- حديث

بيني وبين ابنتي

أنا – أريد أن أكتب كتاباً في الحضارة وأريد أن أعرف ما هي الحضارة فما رأيك أنت فيها ؟

ابنتي – أظن أن الحضارة هي لبس الملابس الجميلة، وركوب السيارات العامة والخاصة، ووجود المال في يدك تبتاع به ما تشاء، والحوانيت قريبة منك تبتاع منها ما تريد.

أنا – نعم ولكنك تعلمين أن الأطفال يلبسون الملابس الجميلة، وأن خادمتنا تركب السيارات العامة وتبتاع الأشياء من الحوانيت، فهل تريدين أن تقولي إن الأطفال متحضرون وإن خادمتنا متحضرة ؟

ابنتي – لا لست أظنهم كذلك، ولكن في وسعهم جميعا

أن يكونوا متحضرين إذا شاءوا. إن من حولنا كثيرة من أسباب الحضارة يستطيع بها كل إنسان أن يكون متحضرة إذا أراد.

أنا – أي الأسباب تقصدين ؟

ابنتي – أقصد الآلات والقطر الحديدية والإذاعة والمسرة والخيالة.

أنا – لست أنكر أن هذه الأشياء صلة بالحضارة، ولكني لا أعتقد أن الحصول عليها واستخدامها وحدها يجعلان الإنسان متحضرة. إن تحضرك يجب أن يكون شيئاً يشرفك وتفخرين به، وليس في ركوب القطار شيء من أسباب الفخر. وأظن أنه يحسن أن نفكر في قوم متحضرين لعل هذا يسهل علينا فهم معنى الحضارة. فاذكري لي إنسانا تعتقدين أنه متحضر.

ابنتي – شكسبير.

أنا – ولم تظنين أن شكسبير رجل متحضر ؟

ابنتي – لأنه كان رجلا عظيماً، ولأنه كتب عدة مسرحيات يعجب بها الناس كثيراً.

أنا – أظن أن المناقشة قد بدأت تكون جدية، ولكن خبريني هل تحبين أنت مسرحيات شكسبير ؟

ابنتي – لست أحبها كثيراً.

أنا – وإذن فلم تقولين إنها مسرحيات عظيمة ؟

ابنتي – لأني أظن أني سأحبها يوماً ما. ومهما يكن من أمري أنا فإن الكبار يتحدثون عنها كثيراً.

أنا – نعم، وهناك أشياء غير المسرحيات كالصور و الموسيقي لا تحبينها الآن ولكن الكبار يتحدثون عنها كثيرة. فإذا كانت مسرحيات شيكسبير من أسباب الحضارة فإن صور رفائيل وموسيقي بيتهوفن من أسبابها أيضا.

ابنتي – أظن ذلك، وإن كنت لا أعرف شيئا عن صور رفائيل أو موسيقى بيتهوفن.

أنا – ستعلمين الشيء الكثير فيما بعد عن هؤلاء

الناس؛ والآن أكتفي بأن أقول لك إنه إذا كان عمل الأشياء الجميلة والمسرحيات والصور والموسيقى من أسباب الحضارة كان شكسپير ورفائيل و بيهوفن ومن على شاكلتهم أعظم الناس شأنا في هذا العالم.

ابنتي – ولكن كثيرة من الناس القدامى الذين تحدثنا عنهم القصص كالملوك والأمراء كانت لهم أشياء عظيمة كالقصور الفخمة، والملابس الجميلة، والجواهر النفيسة، والطنافس الغالية، والمأكولات الشهية، والعطور والخدم والعبيد. ألم يكن هؤلاء متحضرين ؟

أنا – لا أستطيع أن أقطع في ذلك رأي، فأنت ترين أن كل ما يفخرون به أنهم كانوا يحصلون على ما يشتهون ويفعلون ما يريدون.

ابنتي – أليس هذا من حقهم ؟

أنا – تصوري أنت شيئا جميلا – شيئاً تحبينه...

ابنتي – كالحلوى مثلا.

أنا – وتصوري أنك كنت من أغنى الناس، تمتلكين من المال بقدر ما تحبين، وأنك اشتريت آلاف الآلاف من قطع الحلوى، ألا تكرهينها بعد قليل ؟

ابنتي – أظن ذلك.

أنا – وهذا يصدق أيضا على كرات اليد التي يتسلى بها الأولاد الصغار.

ابنتي – ماذا تقصد بهذا ؟

أنا – إن أخاك مولع بالكرات. ولكن تصوري أنه كان غنيا، وإنه لحبه إياها أنفق ماله كله في شراء اكبر عدد ممكنه شراؤه منها حتى كانت له مها مئات. إنه مع ذلك لن يكون أحسن حالا ما كان وهو يمتلك كرة أو اثنتين، أليس كذلك؟

ابنتي – أتعني أنه لا يستطيع أن يتسلى بأكثر من واحدة أو اثنتين في وقت واحد؟

أنا – نعم. ثم هو لا يلبث أن يعمل اللعب بالكرات.

ابنتي – أظن ذلك، ولكن ما شأن هذا وموضوع حديثنا؟

أنا – إن الأشياء الجميلة التي تقرأين عنها في كتاب ألف ليلة كالقصور الفخمة، والملابس الجميلة، ومئات الجواري والعبيد وما إلى ذلك كله، لا تختلف في رأيي عن الحلوى والكرة يلهو بها الكبار. فبعض الناس يولدون أبناء ملوك ورثون المال والسلطان، فإذا كبروا سألوا أنفسهم «ما أحب الأشياء إلينا؟» فإذا عرفوا ما يحبون أنفقوا المال في شراء أكثر ما يستطيعون شراءه منه.

ابنتي – ثم يملونه ؟

أنا – نعم، لأنك إذا ظللت طول الوقت تفعلين ما تريدين، وتتمتعين بما تشتهين، زهدت نفسك في هذا وذاك.

ابنتي – كما تزهد نفسي في الحلوى، ولكن في وسع الإنسان أن يمتنع عنها بعض الوقت ثم يبدأ من جديد.

أنا – وهذا ما كان يفعله الرومان. فقد كانوا يملأون بطونهم من الطعام والشراب، حتى إذا لم تعد

تتسع لأكثر مما فيها تناولوا مقيئا يساعدهم على أن يفرغوا ما فيها، ثم يبدأون الأكل والشراب من جديد. ولست أظن أن هذا من الحضارة في شيء، فهل تظنينه أنت كذلك ؟

ابنتي – كلا، إنه لا يمت إلى الحضارة بسبب.

أنا – إن الخنازير تفعل ما كان يفعله هؤلاء الرومان وإن لم يكن في مقدورها أن تتقاباً بعد أن تمتلئ بطونها بالطعام.

ابنتي – وليست الخنازير متحضرة بحال من الأحوال.

أنا – فلنقل إذن إن الذين لا يستخدمون المال والسلطان إلا ليحصلوا هما على ما يشتهون، و يفعلوا بهما ما يريدون، ليسوا في الحقيقة متحضرين، وإن كان هذا يسرهم إلى حين ؛ ومعنى هذا أن الحضارة ليست أن يعيش الإنسان منعما مترفة، هي الطلعة عظم الجاه. وكثيرون من أمراء العالم وحكامه، أصحاب المال والسلطان، لم يستخدموا مالهم وسلطانهم إلا بالطريقة سالفة

الذكر، ومن أجل ذلك لم يكونوا متحضرين.

ابنتي – أليس من المدنية أن تلك الإنسان القصور الفخمة كما كان يمتلكها الأمراء الذين تحدثنا عنهم قصص ألف ليلة ؟

أنا – إنهم لا يكونون متحضرين إلا إذا كانت لديهم أشياء أخرى جميلة كالمسرحيات والصور التي كنا نتحدث عنها.

ابنتي – وكيف أميز الأشياء الجميلة من غيرها ؟

أنا – إنها هي الأشياء التي لا تسأمين منها. إن الأشياء الجميلة تبقي على الزمن، أي أن الناس يحبونها في جميع العصور. أما ما كان للكبار كالحلوى للصغار فلا يبقى إلا قليلا لأن الناس يسأمونه. ولكن لنعد إلى ما كنا نتحدث عنه منذ قليل. إن الحوانيت والآلات والسيارات التي حدثتك عنها لم تكن على شيء من الجمال، ومع ذلك فقد قلنا إنها قد تكون لها صلة ما بالحضارة.

ابنتي – نعم. وأنا أعرف هذه الصلة. إنها كلها مخترعات،

والاختراع شيء يفعله الناس إذا كانوا متحضرين. إن سبب وجود المخترعات في هذه الأيام أن رجلا مثل چيمس وت شاهد الماء يغلي في الإناء، وأن نيوتن شاهد التفاحة تسقط من الشجرة.

أنا – نعم. ولكن الذي يهمنا في الحضارة هو الاختراع نفسه لا الشيء المخترع.

ابنتي – لست أفهم ما تريد.

أنا – إن كثيرين من الناس قد شاهدوا الماء يغلى في الآنية، والتفاح يسقط من الأشجار، قبل أن يشاهدها ووت ونيوتن، ولكنهم مع ذلك لم يخترعوا شيئا فما سبب ذلك ؟

ابنتي – سببه فيما أظن أنهم لم يروا فيه شيئاً يخالف ما ألفوه.

أنا – هذا صحيح، ولكن نيوتن ووت قد رأيا ما يخالف المألوف، وهذا هو المهم. إن التفاح الساقط من الأشجار والآنية التي يغلى فيها الماء قد أوحت إلى الناس أفكار جديدة، وبفضل هذه الأفكار

الجديدة زاد علم الناس بهذا العالم واخترعوا فيه أشياء جديدة، ولست أشك أن عملية التفكير في أفكار جديدة سواء أدت إلى مخترعات أو لم تؤد إليها من أدلة الحضارة، وإن لم أستطع أن أجزم بأن الأشياء التي تخترعها في حد ذاتها من دلائل التحضر.

ابنتي – ولم كان التفكير في أشياء جديدة دليلا على الحضارة ؟

أنا – لأن العالم سيبقى كما هو إذا ظل الإنسان يفكر كما يفكر غيره.

ابنتي – أتريد أن تقول إنه لو كان الناس قد ظلوا يفكرون كما كان يفكر آباؤهم، لكن الآن همجا متوحشين ؟

أنا – هذا ما أعنيه بالضبط. إن الحضارة تقوم لأن الناس يفكرون تفكيراً جديداً، وهم لا يفكرون تفكيراً جديداً إلا إذا فكروا تفكير؟

ابنتي – وماذا منعهم من التفكير الحر ؟

أنا – إنك تعرفين أن الناس لم يكونوا كلهم أحراراً في تفكيرهم فقد قيل للكثيرين ممن فكروا تفكيراً مستقلا، إن مخالفة الناس في تفكيرهم شر وبلاء عظيم ؛ وقال لهم رجال الدين في كثير من الأحيان إنهم إذا فكروا على هذا النحو أو ذاك غضبت عليهم الآلهة وأنزلت هم أشد العقاب، وصدق الناس رجال الدين وخافوا غضب الآلهة وفكروا كما أمروا أن يفكروا. والناس حتى ولو لم يكن بينهم رجال دين لا يحبون من لا يفكرون كغيرهم، ومن لا يفعلون ما يفعله جيرانهم. الست أنت تبغضين من زميلاتك في المدرسة من تختلف قليلا عن سائر البنات ؟ وذلك أيضا شأن الكبار. والتفكير الحر في أكثر الأحوال تفكير يخالف ما ألفه الناس، ومن أجل هذا كان من أصعب الأشياء أن يفكر الناس تفكيراً حرة. ولكن المدنية، كما علمت، لا تقوم إلا إذا كان الناس أحرارة في تفكيرهم.

ابنتي – ولكني لا أزال أعجب من قلة من يفكرون

تفكيرا حرا، إذا كان للتفكير الحر هذا الشأن العظيم.

أنا – ذلك لأنه لا بد من وجود أشياء كثيرة قبل أن تهيأ للناس أسباب التفكير الحر. لابد من وجود الأمن مثلا. ذلك أن أحدا لا يستطيع أن يفكر تفكيراً سليما إذا كان لا يأمن على نفسه أو على ماله. ولا بد له أيضا من وقت يفكر فيه، ولا يكون له هذا الوقت إذا كان همه كله أن يحصل على الطعام والكساء، أي إذا كان يصرف وقته كله في السعي إلى الرزق ؛ وكذلك لا بد أن يكون من حوله قوم يتحدث إليهم، أي أن الأمن والفراغ والمجتمع لا غنى عنها للتفكير الحر، ولا غنى عنها كذلك القيام الحضارة.

ابنتي – وهل هذا كل ما تريد أن تقوله عن الحضارة ؟

أنا –أظن أن هناك شيئا آخر

ابنتي – وما هو هذا الشيء ؟

أنا – أن يكون الإنسان خيراً.

ابنتي – وما الصلة بين الخير والحضارة ؟

أنا – ليس من الناس في حقيقة الأمر من يريد أن يكون خيراً. فهم أخيار لأنهم يلقون المتاعب إذا لم يكونوا أخياراً.

أنا – قد يكون ذلك. وهذا بعينه شأن الكبار، فقد تحدثني نفسي أن أختطف أبناء رجل من الناس أو أقتله، أو أسرق سيارته أو أغتصب ملكه، ولكن يمنعني من ذلك أحيانا أني إن فعلت هذا وعرف الناس ما فعلت أصابني من ذلك أذي كثير.

ابنتي – ولكن ما علاقة هذا بالحضارة ؟

أنا – إن له بها علاقة كبيرة، لأنه إذا كان في وسع كل إنسان أن يختطف أبناء غمره ويغتصب مالهم ظهر الفساد في الأرض، واستحال على الناس العيش، وأصبحوا كلهم يتنازعون ويقتتلون، ولم تر أحدا يخترع شيئا مفيدة، أو يصنع شيئا جميلا، وتعرضت الحياة لأشد الأخطار، و استحال قيام الحضارة.

ابنتي – وهل هذا هو السبب في أن الكبار يطيعون

القانون ويكونون أخيارا ؟

أنا – لعل هذا ليس كل السبب. ولست متأكدا من هذا ولكني لا أشك في أنه من أهم الأسباب، فأنت ترين إذن أن الاتصاف بالخير ذو صلة بالحضارة، والرجل الخير هو الذي لا يسيء إلى جاره، ولا يغتصب. ماله، ويطيع القانون. وقد يكون عليه واجبات أخرى غير هذه.

ابنتي – وما هي هذه الواجبات الأخرى ؟ إني أحب أن أعرف كيف يكون الإنسان خيراً.

أنا – وهذا أيضاً ما أحبه أنا، وما يحبه كثيرون من الناس، ولكنني سأكتفي الآن ما ذكرت، ذلك أننا قد عرفنا بعض الأشياء المهمة التي لا غنى عنها للمتحضر، وهي صنع الأشياء الجميلة، والتفكير الحر، والتفكير في أشياء جديدة، وإطاعة القوانين التي لا يستطيع الناس بغيرها أن يعيشوا مجتمعين. ويطلق الكبار على الأشياء الجميلة اسم الفن، وعلى التفكير الحر والتفكير الجديد اسم العلم

والفلسفة، وعلى إطاعة القوانين اسم العدالة السيأسيا والأخلاق. وقد لا تكون هذه كل ما تنطوي عليه الحضارة، ولكننا سنكتفي بها إلى حين.

٢ - حديث عن الحديث

لقد بدأت كتاب هذا الحديث الذي جرى بيني وبين ابنتي لأنه خير والرابع أن أوضح به معنى الحضارة، ولأنه فضلا عن ذلك يبين السبب الذي من أجله أغفلت في هذا الكتاب قصص عظماء الملوك وكبريات الدول، عما قد يظن القارئ أن ذكره واجب فيه. إن الدول التي ورد ذكرها في التوراة كدولة أشور و بابل، وإن مدن الشرق الذائعة الصيت كسمرقند وبغداد، كانت من غير شك مدائن قمة عظيمة، ولكن حضارتها كانت في الغالب حضارة « حلوى ». ولا ينطبق هذا القول على مصر القديمة، فقد كانت لها حضارة حقة، وحتى بابل نفسها كان فيها من غير شك رجال يعيشون عيشة المتحضرين، سنوا لأنفسهم شرائع طيبة، وصنعوا أشياء دولة، وكان لهذه البلاد حكام بعضهم على جانب عظم من العلم والحكمة. ولكن الأمراء والأميرات والحكام الذين نقرأ أخبارهم في ألف ليلة، والرجال أصحاب المال والسلطان في جميع البلاد، كان همهم على الدوام أن يحصلوا على ما يشاءون، ويتمتعوا ما يشتهون، ولم يكن معظم هؤلاء الملوك والحكام في حقيقة أمرهم إلا «آكلي حاوى ». ومن أجل هذا لا تجد في هذا الكتاب ذكرا للدول والملوك والأمراء إلا قليلا. بقيت

بعد ذلك نقطتان :

أولاها أن القوة شيء طيب على شرط أن تحسن استعمالها، ولكن الكثيرة الغالبة من الحكام الذين يقص علينا التاريخ أخبارهم كانوا إذا ملوا " أكل الحلوى " وأرادوا أن يظهروا قوتهم لم يجدوا لذلك وسيلة إلا بعد مضايقة الناس ومخاصمتهم. مثال ذلك أن الكثرة الغالبة من دول العالم الكبرى قامت على الرق، والأرقاء قوم يمتلكهم الإنسان كما تمتلكين أثاث منزلك وملابسك ولعبك، وكما أنك تستطيعين أن تفعلي هذه الأشياء ما تريدين (ولم لا تفعلين بها ذلك وهي أشياء جامدة وليست كائنات حية ؟) فقد كان في وسع من يمتلكون الرقيق أن يفعلوا هم ما يشاءون، وكان أعظم ما يرغب فيه من يمتلكون الرقيق أن يلزموهم العمل الشاق، وألا يدفعوا لهم من الأجر إلا القليل، وألا يعطوهم من الطعام إلا ما يكاد يسد الرمق، وأن يقتلوهم ويعدموهم إذا شاءت أهواؤهم. والآلات في هذه الأيام تعمل ما كان يعمله العبيد، ولم يكن العبيد وحدهم هم الذين يؤمرون ويهدمون، لقد كان كثير من الملوك والعطاء ذوى القوة والبأس يعاملون كل الناس كما يعامل السادة الرقيق، فقد كان في وسعهم أن يرغموا الناس على أن يفعلوا لهم ما يريدون، فإذا لم

يطعهم إنسان قطعوا رأسه. ونحن نسمي هذا استبداد و نسمي من يستخدم سلطانه على هذا النحو مستبدا ؛ والاستبداد لا يتفق في شيء مع الحضارة، ولذلك لم أذكر في هذا الكتاب شيئا عن الأمراء والحكام الذين يسهم الناس عظماء لا لشيء إلا لأهم كان لهم سلطان مطلق.

والمسألة الثانية أن أكثر من نتحدث عنهم كتب التاريخ و من نشيد بكرمهم ومجدهم هم حماة القانون والقواد والجنود، في حين أن الذين كانت لهم اليد الأولى في تقدم الحضارة لا يكاد يوجد لهم ذكر في هذه الكتب. فليس منا من يعرف مثلا أول من جبر ساقا مكسورة، أو أنزل قاربة إلى البحر، أو قدر طول السنة، أو مهد أرضا زراعية. ولكنا نعرف الشيء الكثير عن القتلة والمجرمين، وهؤلاء تجدهم الناس ويشيدون بذكرهم، ويقيمون لهم الأنصاب والتماثيل في مدائن العالم الكبرى، وأظن أن الكثرة الغالبة من الناس ترى أن أعظم الدول شأنا هي التي هزمت أكثر عدد من الدول الأخرى في ميدان القتال، وغلبتها على أمرها، وأخضعتها لسلطانها. وسواء كان أولئك الناس مصيبين في ظنهم هذا أو مخطئين، فإن هذه الدول الغالبة ليست أكثر الدول حضارة.

إن الوحوش تتقاتل و كذلك يتقاتل المتوحشون، ومن أجل ذلك كان أقدر الناس على القتال أشبههم بالوحوش أو بالمتوحشين وأبعدهم عن الحضارة ؛ بل إن من يبرع في تسخير الناس القتال له وتدريبهم على هذا القتال وعلى المهارة فيه – وهذا هو الذي يفعله الغزاة والقواد في واقع الأمر – هو أبعد الناس عن الحضارة. والناس يتحاربون ليفضوا ما يشجر بينهم من خلاف، ولكن الحرب لا تفض خلافا بل تؤدي إلى القتل والتخريب، ولذلك كان من واجب المتحضرين أن يبحثوا لهم عن وسيلة يسوون بها منازعاتهم غير المباراة في التقتيل والتدمير، ومعرفة أي الفريقين أقدر عليهما من الفريق الآخر، والحكم له بأنه المنتصر، وأن الحق في جانبه. وليس للالتجاء إلى الحروب لفضي المنازعات معنى غير هذا، أو بعبارة أخرى إن معناه أن الحق للقوة.

قد يكون من أسباب المتعة الطيبة والتسلية في نظر بعض الناس أن يكون الواحد منهم جنديا عظما أو فاتحا كبيرة، ولكن هذا لا يجعله إنسانا متحضرة، ومن أجل هذا أغفلت في قصة الحضارة ذكر قيصر ونابليون والإسكندر، لأن هؤلاء لم يكونوا إلا رجالا نجحوا أكثر من غيرهم في قتل عدد كبير من بني الإنسان.

ولقد كان الناس في جميع عصور التاريخ يحبون المال والسلطان، ويقتتلون مع جيرانهم، ويستخدمون المال في شراء ما يحبون وفي إخضاع غيرهم من الناس، وإذا قام النزاع بينهم وبين جيرانهم حاولوا أن يقتلوهم. ولقد سارت قصة الإنسانية في أكثر مراحلها على هذا النمط، بل إن عصرنا الحاضر قد شبت فيه نار حربين عظيمتين، كانتا أكثر الحروب وحشية، وقتل في كلتيهما آلاف من بني الإنسان، وأصبح آلاف غيرهم عاجزين عن العمل.

نعم إن الأفراد المتحضرين في هذه الأيام لا يتحاربون ولا يقتل بعضهم بعضا في الطرقات، لأنهم بلغوا مستوى من الرقي يحتم عليهم أن يراعوا القوانين، وأن يسلكوا مسلكا حسنا مع جير مهم في حياتهم اليومية. ولكن الأمم والدول لم تصل إلى هذا المستوى حتى الآن، ولا تزال تسلك سلوك المتوحشين. ومع أنه ليس فينا من يملك العبيد، ومع أن من حق الرجل أن يعمل ولا يعمل إذا شاء، فإن معظم الناس فقراء لا يجدون ما يسد رمقهم، وإذا لم يعمل الواحد منهم ما يكلفه به صاحب العمل المسيطر عليه فإنه قد عوت جوعاً.

ويرى مما تقدم أن هذا الكتاب يغفل القسم الأكبر مما يسميه الناس تاريخا، وكاتبه يعتقد أن العالم لم تقم فيه إلا قليل جدا من

الحضارات الحقة، ولم يوجد فيه إلا قليل من المتحضرين الحقيقيين. ولو أنني أردت ألا أذكر فيه إلا الشعوب التي لم تسلك سلوك المتوحشين، والتي لم تتخم ما تشتهي من «الحاوي»، والتي لم تقتل غيرها من الشعوب أو تفرض عليها سلطانها، لو أنني أردت ذلك لما كتبت هذا الكتاب قط، لأني في هذه الحال لا أجد من أذكره فيه.

لكننا يجب أن ألا نفرط في التشاؤم. إن تاريخ الإنسان جد قصير، وإذا نظرنا إلى البشر من حيث تطورهم وجدناهم في حقيقة أمرهم أطفالا. فالعلماء يقولون إن الحياة بدأت على الأرض في صورة أولية قبل ألف ومائتي مليون من السنين، ولا يوجد على ظهرها إلا من مليون واحد، ولم يعش عليها الإنسان المتحضر إلا من ثمانية آلاف سنة على أكبر تقدر. ولعل القاري لا يستطيع أن يدرك معنى هذه الأرقام، ولذلك يحسن بنا أن نقربها له بعض التقريب.

إنا إذا فرضنا أن تاريخ الكائنات الحية على ظهر الأرض يبلغ مائة عام، فإن تاريخ الإنسان في هذه الحال لا يزيد على شهر واحد، ولا يزيد تاريخ الإنسان المتحضر على سبع ساعات أو ثمان، وهي فترة قصيرة لا تكفي لأن يتعلم فيها الناس الشيء

الكثير، ولا زال أمامهم متسع من الوقت يتعامون فيه. وإذا قدرنا ماضي الإنسان المتحضر على ظهر الأرض بنحو سبع ساعات أو ثمان، كان لنا أن نقدر مستقبله – أي الزمن الذي يمضي من هذه الساعة حتى تبرد الشمس فتنعدم الحياة على الأرض – بما يقرب من مليون ومائتي ألف عام[1]. ومعنى هذا أن البشر لا يزالون في بداية حياتهم المتحضرة، ولهذا يجب ألا ننتظر منهم في هذا الوقت أكثر مما يطيقون. لقد كان تاريخ الإنسان الماضي في كثير من مراحله تاريخاً حيوانياً إلى حد كبير، أي تاريخ قتال وسيطرة وذبح وطعن وإيذاء. وليس من حقنا إذا راعينا هذا التاريخ القصير أن نطلب حتى إلى المتحضرين ألا يكونوا قد فعلوا هذه الفعال ؛ وكل ما يحق لنا أن نأمل فيه أن يكونوا قد فعلوا أشياء أخرى غيرها، وسنذكرها لهم إذا عثرنا عليها.

ثم ماذا ؟ قد يقول بعض الناس بحق إني لم أبين حتى الآن ما هي الحضارة، بل كل ما ذكرته هو الأشياء التي تتعارض مع الحضارة.

وجوابي عن هذا إني لم أعرف بعد ما هي الحضارة، وإني قد

---

(1) ويبلغ هذا في حقيقته نحو اثنى عشر ألف مليون من السنين (أي اثنى عشر متبوعة بتسعة أصفار).

كتبت هذا الكتاب لأبحث فيه عن ماهيتها. وقد يكون في وسعي أنا ووسع القارى أن نعرف عن الحضارة أكثر مما نعرف بعد أن نذكر الشيء القليل عن بعض الحضارات التي نشأت في العالم، ثم نتحدث عن ماهية الحضارة آخر الأمر.

الفصل الأول

كبار المعلمين الدينين

سأنتقل بعد ذلك إلى الكلام على الحضارتين الهندية والصينية اللتين قامتا منذ ألفين وخمسمائة عام. ولن أطيل الكلام على هاتين الحضارتين السببين، أولها أننا لا نعرف عنهما إلا القليل، ومن أجل هذا لن تجد لدينا الشيء الكثير الذي يصح أن نذكره عنهما في هذا الكتاب. والسبب الثاني إن أهم ما خلقته الحضارتان هو البحوث الدينية. فإذا كان الهنود والصينيون جديرين بالذكر فليس أكبر السبب في هذا أنهم قد فكروا تفكير حرا أو صنعوا أشياء جميلة (وإن كان الصينيون بنوع خاص قد ساهموا بقسط موفور في هاتين الناحيتين)، بل أكبر السبب في هذه الجدارة، إنهم جاءوا إلى العالم بآراء جديدة فيما سميته من قبل الصلاح وعمل الخير، وأهم ما حاولوا أن ينهجوا في حياتهم سبيل الخير والصلاح.

الآراء الدينية الأولى :

لابد لي من أن أقول كلمة عن الآراء الدينية التي كانت منتشرة قبل أيام هذين الشعبين لي أظهر مبلغ الرق الذي بلغته الحضارة في عهدها. إن الآراء الدينية الأولى كانت في الغالب خليطا من الخوف والحب لجر مغم. فقد وجد الإنسان البدائي نفسه تحت رحمة قوي مادية مختلقة لا يستطيع فهمها أو السيطرة عليها، كالرعد والبرق والزلازل وفيضان الأنهار ؛ ولم يكن في مقدوره أن يتصور حدوث هذه الظواهر دون أن يكون لها ما يحدها أو (كما يعتقد هو من يحدثها. لقد كان يعتقد أن وراء هذه العواصف والزلازل وما إليها « شخصا » من نوع ما، وهذه الفكرة فكرة وجود شخص يسبب حدوث الأشياء المرعبة هي في رأى البعض منشأ التفكير في وجود إله قادر مسيطر على الكون. ولكن الأقدمين لم يكونوا يؤمنون بوجود إله واحد يصدر عنه كل ما يقع في الكون من حوادث، بل كانوا يؤمنون بآلهة كثيرين، يسيطر كل مهم على ظاهرة من ظواهر الكون. مثال ذلك أن المصريين الأقدمين الذين كانت لهم حضارة عظيمة من أقدم الأزمنة المعروفة – أي من ستة آلاف من السنين أو تزيد – كانوا يعتقدون بوجود آلهة كثيرين، فكان لهم إله للقمر و إله

للشمس وإله للطاعة وإله للعلم. وكان بعض هؤلاء الآلهة من الحيوانات كالبقرة والضفدعة والتمساح وغيرها. وكان الآلهة يحبون ويكرهون، ويتقاتلون كما يفعل الآدميون، وكان يصدر عنهم كل ما يقع في العالم من الحوادث. وكان على الناس أن يحرصوا أشد الحرص على رضائهم، لأنهم إذا غضبوا على البشر أصابهم من جراء هذا الغضب بلاء عظم. وكانت الفكرة الثانية لدى الناس في عصور التاريخ المختلفة أنهم لا ينجون من الأخطار التي تهددهم في حياتهم إلا إذا أنفقوا جزءا كبيرة من وقتهم في الصلاة إلى الآلهة واستجلاب عطفهم ورضاهم. فالمصريون مثلا كانوا يعتقدون أن النهار لا يطلع عليهم إلا إذا جيء راع إله الشمس من العالم السفلى كل أربع وعشرين ساعة بفضل دعاء الكاهن الأكبر وصلاته بعد أن يسجد له و يرجوه أن يطلع على العالم.

سلطان رجال الدين :

وأصبح لرجال الدين بسبب هذه الاعتقادات سلطان كبير ؛ فقد كانوا هم واسطة الاتصال بين الآلهة والآدميين، وكانوا هم وحدهم يعرفون إرادة الآلهة و يطلعون الناس عليها؛ وهذه الطريقة كان في وسعهم أن يرغموا الناس على أن يفعلوا ما يريدونه بحجة أن هذه هي إرادة الآلهة التي يجب عليهم أن

يطيعوها، وإلا حل عليهم غضبهم الشديد.

وقد نشأ عن هذه القوة العظيمة التي كان منشؤها خوف الآلهة عادات وأفعال غاية في القسوة والفظاعة، كان أكثرها وحشية عادة التضحية بالآدميين. فقد كان رجال الدين يقولون أحيانا إنه إذا لم يضح ببعض الآدميين الأحياء لاسترضاء الآلهة، غضبت عليهم وأوقعت بهم الهزيمة في ميدان القتال، أو أتلفت زرعهم أو أظهرت سخطها عليهم بطريقة ما. ولنضرب لذلك مثلا بلاد مصر لأننا نعرف الكثير عن تاريخها القديم. إن عماد ثروة البلاد ورخائها هو نهر النيل ؛ ذلك أن أرض مصر جافة بطبيعتها لا تخرج الزرع إلا إذا سقاها النيل. وهذا النهر العظيم يفيض على شاطئيه في كل عام ويغمر مائه الأرض التي حوله فيخصبها وروها، و يجعلها من أكثر بلاد العالم رخاء، وكان للنيل بطبيعة الحال إليه أو على الأصح آلهته الخاصة، وكان رجال الدين يقولون إنه إذا لم تقدم النذور والقرابين إلى آلهة النيل امتنع عن الفيضان وهلاك الناس من الجوع. وكانت أكثر الضحايا من الحيوانات، ويقول بعضهم إن الآدميين أنفسهم كان يضحي بهم في بعض الأحيان، وإن لم يثبت هذا الدليل القاطع. وكانت مثل هذه العقائد منتشرة بين الشعوب البدائية، فكان الأزتك سكان

المكسيك الأولون يعتقدون أن الناس قد خلقوا ليكونوا غذاء للشمس، وأن الشمس تطلب إليهم أن يتحاربوا ويقتل بعضهم بعضا حتى لا يعوزها الغذاء، وكانوا يظنون أن الشمس يضعف نورها إن لم يقدموا لها قرابين من اللحوم البشرية حينا بعد حين.

حب الآلهة لجر المغانم مها:

كانت المراسم والطقوس الدينية التي تمارسها الشعوب البدائية شديدة القسوة، وقد وضعت في يد رجال الدين سلطة واسعة طالما أساءوا استخدامها، وهي فوق هذا وذاك شاهد على أن هذه الشعوب كانت تنظر إلى الدين نظرة فاسدة حقيرة.

لقد سبق القول إن معظم الديانات القديمة كانت مزيجاً من الرهبة والحب الذي يقصد به جر المغانم ؛ فكان الناس يعتقدون أنه سيحل بهم غضب الآلهة وعقابهم إن لم يسترضوهم بشتى الوسائل ؛ وكانوا يرجون الخير منهم إن أحبوهم أو تظاهروا بحبهم، ومعنى هذا أن الناس كانوا يحبون الآلهة بمقدار ما يرجون من الخير ؛ ومن أجل هذا كانوا يتملقونهم، ويصلون لهم، ويصفونهم بالقوة وحب الخير، ويرشونهم بالضحايا والقرابين، ويقدمون الهدايا الكهنة المعابد. وكلما كان الآلهة أسوأ خلقا كانت الهدايا الواجب تقديمها إليهم أكثر وأثمن، فلا عجب بعد

ذلك إذا أشاع الكهنة بين الناس أن الآلهة سريعو الغضب حادو المزاج.

إله واحد:

إن أعظم ما أفاد به المدنيات التي سأتحدث عنها الآن أنها سمت فوق هذه الآراء البدائية عن الآلهة (وفي الكتابات الباقية من عهد ملك مصر إخناتون) وفي التوراة كتاب اليهود المقدس وفي اليوبانيشا وغيرها من كتب الهنود المقدسة ما يدعو إلى التوحيد، وتلك من غير شك خطوة كبرى في طريق الرقي الفكري، فقد قضت بالتدريج على عادة التضحية بالآدميين. وقد ظهر في بلاد الهند والصين في القرن السادس قبل الميلاد ثلاثة من كبار رجال الدين جعلوا منهم أن يرشدوا الناس إلى وجوب فعل الخير حبا في الخير لا رغبة في أن يثابوا على فعله.

بوذا :

وأعظم هؤلاء الثلاثة هو جوتاما بوذا (٥٦٨-٤٨٨ ق.م). وكان في أول حياته شابا هنديا غنيا من أسرة شريفة، ولما بلغ التاسعة عشرة من عمره تزوج بابنة عم له جميلة ؛ وظل حتى السادسة والعشرين يعيش كما كان يعيش أشراف الهنود في أيامه،

متع نفسه بكل ما تشتهيه. ثم مل هذه الحياة فجأة وشعر أنها لم تكن الحياة الصحيحة الطيبة، بل كانت كلها لهو ولعبة، وأخذ يبحث عن معنى الحياة والغاية منها، وتوسل إلى معرفة ذلك بالانضمام إلى طائفة الزهاد وعاش معهم إلى حين.

ولقد وجد الزهاد في العالم في كل الأوقات وفي جميع الأقطار، ولكنهم أكثر ما يوجدون الآن في بلاد الهند. والزهاد قوم يعتقدون أن في وسعهم أن ينالوا القوة الروحية والقداسة بتعذيب الجسم كالامتناع عن النوم والأكل وإيذاء البدن، ولكن بوذا خرج على هذه العادات المألوفة. ولما أيقن أن ضعف الجسم ومرضه لا يوصلان إلى الحقيقة طلب إلى رفاقه أن يقدموا له الطعام، فدهشوا من هذا الطلب وارتاعوا له، وأخرجوه من زمرهم لأنه أخفق في الوصول إلى الغاية المرجوة، فأخذ يضرب في الأرض وحيدا فترة من الزمان. ولسنا نعرف شيئا عن تجواله، ولكنا نجده بعد قليل جالسا تحت شجرة تين كبيرة، وهنا رأى رؤيا بدأ على أثرها تعالمه العظيمة عن الخير والحق.

وكان مما علمه الناس أن مصدر شقاء الإنسان هو سعيه للحصول على ما لا يجب أن يحصل عليه – على الملاذ التي تشترى بالمال، والتسلط على غيره من الناس، وعلى الرغبة في أن

يذكره الناس بعد الموت، وهي شر من الملاذ والسلطان. وقال إن الحرص على هذه الأشياء يبعث في الناس الأنانية فلا يفكرون إلا في أنفسهم، ولا يعملون إلا لأنفسهم،، ولا يعبئون بكثير مما يصيب غيرهم من الناس. ولما كان الناس لا ينالون كل ما يشتهون فإنهم يصبحون قلقين ساخطين، والطريقة الوحيدة للنجاة من هذا القلق هو التخلص من الرغبات التي تثيره، وذلك أمر جد عسير، ولكن الإنسان إذا استطاعه وصل إلى حالة عقلية أو نفسية يسميها «رقانا» وهي حالة الاطمئنان والهدوء الكاملين.

ويظن بعض البوذيين أن الناس يحيون أكثر من حياة واحدة، وأن ما يحدث لهم في كل واحدة مها موقوف على سلوكهم فيما قبلها، فإذا كان الإنسان شريرة في حياة سابقة ولد في الحياة التي تليها عبداً أو حيوانا دنيئا عقابا له على أعماله. ويظل الانسان يحيا حياة بعد حياة حتى يتطهر من جميع شهواته ويدخل « روانا »، ولكن أكبر الظن أن هذه الآراء ليست من تعاليم بوذا نفسه لأورتس وكنفوشيوس، وكان يعاصر بوذا في الصين أيضا معلمان آخران هما لأورتس (حوالي ٦٠٠ – ٥١٠ ق.م) وتعاليمه شديدة الشبه بتعاليم بوذا، وكنفوشيوس (٥٥٠ – ٤٧٨ ق.م)،

وكان أكثر مهما اهتماما بعلاقة الناس بعضهم ببعض. وكان كنفوشيوس يرى أن الإنسان لا يستطيع إذا اعتزل الناس أن يصل إلى الخير والصلاح لأن من طبيعته أن يعيش في مجتمع مع غيره من الناس. ولما كان المجتمع الذي يعرفه كنفوشيوس – وهو المجتمع الصيني في أيامه – مملوءة بالبؤس والنزاع كمعظم المجتمعات التي ظهرت على وجه الأرض، فقد علم الناس أنهم لا يستطيعون أن يصلوا إلى الخير والصلاح إلا إذا عملوا على إصلاح المجتمع. وفي ذلك يقول : « ليس في وسعي أن أعتزل بني جنسي وأصحب الطير والحيوان اللذين لا أشبه ما في شيء، فمنذا الذي أصاحبه إذن غير الإنسان المعذب ؟ والاضطراب المنتشر بين الخلق هو الذي يحتاج إلى جهودى ». ثم وضع كنفوشيوس قانونا يسير عليه الناس في حياتهم اليومية، وهو قانون طويل مفصل يحدد للإنسان ما يأكله وما يلبسه وما يجب أن يقوم به من الزيارات، وينص على آداب السلوك في المجتمعات، إلى غير ذلك من الشئون. وقد بقيت أخلاق الصينيين متأثرة بهذه المبادئ من ذلك الوقت إلى يومنا هذا.

ويسمى الصينيون تعاليم بوذا، ولأورتس، وكنفوشيوس بالتعاليم الثلاثة، والصينيون والهنود كما يعلم القراء كثيرو العدد،

ومع أن الكثرة الغالبة من الهنود قد نبذت الديانة البوذية فإن تعاليم هؤلاء المعلمين الثلاثة، وهي في معظمها متماثلة، هي التي وجهت أفكار الكثرة الغالبة من الناس وعقيدتهم في الخير والشر والحق والباطل إلى يومنا هذا. وأنا حين أقول الكثرة الغالبة لا أقصد كثرة الناس جميعا فحسب، بل أقصد أيضا كثرة الناس المتحضرين، لأن للصينيين حضارة دامت أكثر من سائر الحضارات، ودامت متصلة غير متقطعة، وإن كان تاريخ بلادهم تتخلله عصور طويلة من الفوضى والاضطراب، وإن كانت بلادهم نفسها يعوزها السلم والاستقرار في هذه الأيام، وإن كانت شعوب كثيرة قد غزت هذه البلاد. وليس ببعيد أن هذه الحضارة الصينية التي سبقت معظم الحضارات في هذا العالم ستبقي بعد فناء الكثير من الحضارات التي نشأت بعدها.

ويرجع الفضل في انتشار البوذية في العالم إلى ملك عظم من ملوك الهند حكمها في القرن الثالث قبل الميلاد (٢٦٤ – ٢٢٧ ق.م)، واسم هذا الملك أسوكا، وهو الملك الوحيد الذي سأذكر اسمه في هذا الكتاب. كان هذا الملك من الغزاة الفاتحين شأن كثيرين من الملوك القدماء، وكان والده الذي حكم الهند من قبله قد جعل تلك البلاد دولة موحدة بعد أن كانت دويلات متنافسة

متقاتلة، فلما جاء أسوكا ضم إلى بلاد الهند أجزاءها الجنوبية. ويلوح أن هذا الملك لم يغفل، كما غفل غيره، عن الآلام التي سببتها الحروب، فقد كان بوذيا تقيا صالحا، وكان شديد الرغبة في أن ينشر البوذية بين الشعوب، ولكنه لم يكن يعتقد أن من الخير أن يستخدم العنف في نشر الدين، فأمر بوقف القتال وهو في إبان انتصاراته الحربية، واعتزم أن يخصص حياته لنشر البوذية بالوعظ والإقناع لا بالسيف، وقد حافظ على السلم في بلاده الواسعة، وحكمها حكما عادلا حكيما، وعني بنوع خاص بحفر الآبار وغرس الأشجار وبناء المستشفيات وتعليم الشعب، وعني بتعليم البنات وإن لم يكن ذلك معروفا في تلك الأيام، وأرسل المبشرين في جميع أنحاء آسيا وإلى أوروبا لنشر تعاليم بوذا. لكن رجال الدين وقفوا في سبيله يريدون أن يمنعوه من القيام بهذه الأعمال، وذلك لأن البوذية تختلف عن كثير من الديانات في أنها لا تحتاج إلى الكهنة والقساوسة ليعلموا الناس التقوى والصلاح، وليصلوا إلى الآلهة من أجلهم، ويستنزلوا رحمهم على البشر، بل علمت الناس أن في وسعهم أن يكونوا صالحين أخيارا بأنفسهم من غير حاجة إلى رجال الدين، وأن من واجبهم أن يسعوا إلى هذه الغاية لذاتها لا بقصد إرضاء الآلهة أو اتقاء غضبهم.

تعاليم الأديان الكبرى :

لقد كانت هذه الأديان السالفة الذكر تخاطب الأفراد من رجال ونساء، ولكنها بلا استثناء كانت تعلم الناس أن أكبر أسباب السعادة أن ينسى الإنسان أنه فرد قائم بنفسه، رجلا كان أو امرأة، وأن من الواجب عليه أن ينسى فرديته، ويندمج في وحدة أكبر منه وأعظم ؛ وبذلك كانت هذه الأديان تعلم الناس ما علمهم المسيح بعد ستمائة سنة من ذلك الوقت. ويعتقد معظم الناس في بلاد الغرب أن المسيح أعظم المعلمين الدينيين، وأن المسيحية التي جاء بها أهم الأديان جميعا ؛ وسواء كان ذلك أو لم يكن فإن المسيحية دين الكثرة الغالبة من أهل أوروبا وأمريكا في هذه الأيام. على أن من المهم أن نذكر هنا أن عقيدة الأوربيين والأمريكيين في المسيح ليست هي العقيدة التي يؤمن بها معظم الناس في هذه الأيام، أو التي كانوا يؤمنون بها في ماضيهم، ولكن مهما اختلف الناس في أمر المسيح، فإن الكثيرة الغالبة منهم تؤمن بأنه كان معلما حقا، وأن تعاليمه التي أرشد بها الناس إلى ما يجب عليهم في حياتهم تعاليم صادقة ونبيلة.

أولا تقل هذه التعاليم شأنا عن تعاليم نبى آخر عظيم هو النبي مُحَمَّد الذي جاء بدين الإسلام أحد أديان المعالم الكبرى.

والإسلام الآن منتشر في أجزاء واسعة من بلاد آسيا وأفريقيا، ويدين به عدد كبير من الناس في أوروبا، ولا تخلو منه أمريكا.

[ويمتاز الدين الإسلامي بأنه يدعو إلى التفكير الحر وأنه يدعو المسلمين إلى الاتصال بالله بأنفسهم من غير واسطة، وأنه يسوي بين الناس ويدعو إلى توزيع الثروة بين الأفراد توزيعاً لو اتبعه الناس لما وجد في العالم فقراء معدمون.]

وليس لدينا أقل شك في أنه لو عاش الناس كما يطلب إليهم هؤلاء المعلمون الكبار أن يعيشوا لصلحت حالهم وسعدوا، ولأصبح العالم أكثر حضارة مما هو الآن ومما كان عليه في غابر الأزمان. لكن الناس مع الأسف قد وجدوا أن ليس من السهل عليهم أن يتبعوا تعاليم المسيح الذي يقول إن الإنسان يجب أن يحسن حتى لأعدائه [وتعاليم مُحَمَّد التي حض على الأخلاق الكريمة و يقول إن الناس متساوون أمام الله] على أن صعوبة هذه التعاليم يجب ألا تمنع الناس أن يحاولوا السير عليها.

ولقد أصر جميع المعلمين الدينيين الذين ظهروا في عصور التاريخ المختلفة على المبدأ القائل إن الناس يجب ألا يعيشوا لأنفسهم وحدها، وألا ينفقوا أوقاتهم في جهودهم للحصول على

ما يرغبون فيه لأنفسهم في هذا العالم من سلطان أو مال أو جاه، بل يجب أن يعملوا لشيء أعظم من أنفسهم سواء كان هذا الشيء إله أو قضية أو غرضا نبيلا يمر الإنسانية بأجمعها. وهذه الطريقة طريقة العمل لما هو أعظم منا ينسى الناس أنفسهم ويصلون إلى السعادة. هذا ما تعلمه الأديان الكبرى، وهو من أهم أصول الحضارة، وهو في الوقت ذاته أصعب ما يستطيع الإنسان أن يتعلمه ويمارسه، بل إن الكثيرين من الناس قد وجدوه مستحيلا.

الفصل الثاني

قدماء المصريين واليونان وما صنعوه من أشياء جميلة

[وسأنتقل الآن إلى الحضارتين اللتين يعدهما كثيرون من الناس أعظم ما شهده العالم من حضارات، وهما حضارة المصريين واليونان الأقدمين. وقد ظهرت الأولى قبل المسيح بنحو ثلاثة آلاف وخمسمائة عام تقريبا، وبقيت في عصور متقطعة نحو ثلاثة آلاف سنة، وعاشت الثانية نحو مائة وخمسين عاما (٤٨٠ – ٣٣٠ ق.م).

إن كثيرا من الشعوب التي عاشت على سطح الأرض لم تضف إلى الحضارة شيئا جديدة، بل عاش أبناء هذه الشعوب كما عاش آباؤهم وأجدادهم، لم يغيروا شيئا من عاداتهم وتقاليدهم، ثم ذهبوا كما ذهب آباؤهم من قبلهم، وليس لدى التاريخ ما يقوله عنهم خيرا كان ذلك أو شرا.. ولكن شعبة جديدة يظهر في العالم بين الفينة والفينة، يخرج عن الطريق المألوف ويختط لنفسه طريقة خاصة، وقد حدث في عصور

التاريخ المختلفة أن تألق في سماء الحضارة على حين غفلة شعب من الشعوب تألق الشهاب الساطع، فتطاير شرره وأضاء كل ما حوله ومن حوله. وكان من أعجب هذه الشعوب [المصريون] واليونان الأقدمون.

[أقدم الأمم :

المصريون الأولون أقدم الأمم المعروفة في التاريخ، وليس معنى هذا أنه لم يكن على سطح الأرض أم قبل المصريين الأقدمين، فربما كان هناك أمم أقدم مهم يسكنون في بقاع أخرى من الأرض غير مصر، وربما وجد في مصر نفسها أقوام قبل هؤلاء المصريين الذين سنتحدث عنهم، والذي نقصده بقولنا إن المصريين أقدم الأمم المعروفة أننا لا نعرف شيئا عن الأمم التي عاشت قبلهم، في حين أننا نعرف الشيء الكثير عن المصريين الذين عاشوا قبل وقتنا هذا بنحو ستة آلاف سنة. والسبب في ذلك أنهم تركوا لنا كثيرة من الأشياء الجميلة التي صنعوها، والمباني التي شيدوها، والأوراق التي كتبوها ؛ ولم يكتفوا بهذا بل إنهم تركوا لنا جثهم بعد أن حفظوها من الفناء بإضافة مواد تمنعها من التعفن، ولذلك نعرف عن المصريين الأقدمين أكثر مما نعرف عن أية أمة أخرى قديمة. وفي كل عام يكشف الباحثون عن

أشياء جديدة مما تركوه. وكانت للمصريين حضارة عظيمة من بعض الوجوه، ولكنها ناقصة من وجوه أخرى ؛ فالمصريون كانوا يصنعون أشياء جميلة كآنية الرخام، والتماثيل الدقيقة الصنع، والحلي التي كانت تلبسها الأميرات، وكل هذه محفوظة إلى الآن في المتحف المصري وفي بعض المتاحف الأوروبية.

الكتابة :

يعتقد العلماء أن المصريين هم الذين اخترعوا الكتابة.. ولكن كتاباتهم في أول الأمر لم تكن ككتابتنا هذه، بل كانت صوراً كصور الناس والحيوانات والطيور والآلات. ويقال إن الكتابة انتشرت من مصر إلى البلاد الأخرى حتى وصلت إلى بلاد اليونان التي سنتكلم : عليها فيما بعد. وصنع المصريون الورق من نبات ينمو في بلادهم يسمى نبات البردي و كتبوا عليه أخبارهم ومعتقداتهم، ولا تزال تلك الكتابة باقية إلى هذه الأيام.

وكان في بلاد مصر القديمة أطباء يعرفون الشيء الكثير عن أجزاء الجسم وعن الأمراض وطرق علاجها، ولكنهم رغم علمهم هذا كانوا يخلطون بين الطب والسحر ويعتقدون أن الأمراض يمكن مداواتها بعض الطرق السحرية، وكتب المصريون بعض القصص والشعر والنصائح والحكم، وكثير منها يحث على

الأخلاق الفاضلة وعمل الخير.

الحكومة والنظام :

والمصريون أول من أنشأ حكومة منتظمة ووضع قوانين يسير عليها الناس حتى يستتب الأمن ويسود النظام ؛ ولكن حكومهم كانت في الغالب يتولاها فرد واحد هو الملك أو من ينوب عنه من الوزراء. أما الحكومات الشبيهة بحكومات هذه الأيام فأول من وضع أساسها هم اليونان.وقد أخذ اليونان عن المصريين الأقدمين كثيرا من علومهم وقوانينهم، و من بلاد اليونان انتقلت إلى روما ومنها إلى سائر أنحاء العالم].

وظهرت الحضارة اليونانية قبل المسيح بنحو خمسمائة عام، وظلت قائمة نحو مائتي سنة، وبلغت أوجها في مدينة أثينة في المائة والخمسين سنة المحصورة بين سنتى ٤٨٠، ٣٣٠ قبل الميلاد. وقد برع الأثينيون في أمور كثيرة بلغ من كثرتها أنني لو أردت أن أتحدث عنها لما اتسع هذا الكتاب لغيرها. وسأصف أولا وما في حياة رجل من رجال أثينة.

يوم من حياة أثيني :

ما هذا الأثيني الذي وجد السماء زرقاء صافية؟ ولعله كان يشرف على الفضاء من شرفة مطلة على البحر، ثم أفطر في رواق أو ما يشبهه وخرج من فوره إلى الشارع ومنه إلى السوق. وذلك أن الأثيني لم يكن يقيم في البيت أكثر من الوقت الذي يلزمه للنوم أو لتناول الطعام، أما معظم حياته فكان يقضيه في خارجه. وهو يجد في الشارع والسوق عددا كبيرا من أصدقائه ومعارفه فيقضي معهم برهة طويلة من وقته يتحدث إليهم و برهة أطول منها يناقشهم ويجادلهم. وكانت السوق العامة والشوارع تؤدى من الأغراض ما تؤديه النوادي في هذه الأيام، فكان الناس يجتمعون فيها، يتسامرون ويتحدثون في الشئون العامة. ولم يكن يحضر في هذه النوادي إلا عدد قليل جدا من النساء، وكانت في معظم الأحيان تخلو منهن شأنها في ذلك شأن النوادي في هذه الأيام. فأين كان النساء إذن في ذلك الوقت ؟ لقد كن في داخل البيت لأن الأثينيين بوجه عام كانوا يرون أن من واجب النساء أن يقضين حياتهن في داخل البيت، كما أن من واجب الرجال أن يقضوا حياتهم في خارجه، ومعنى هذا أن الرجال لم يكونوا كثيري الاختلاط بالنساء.

وبعد أن يحيي الأثيني أصدقاءه في الشارع كان في وسعه أن يذهب ليقوم ببعض العمل. ولم يكن عمله كعمل الكثيرين منا في هذه الأيام، أي أنه لم يكن عملا رتيبا متماثلا يؤديه داخل الجدران. فإن كان الأثيني فخرانيا أو بناء يعمل في تشييد أحد الأبنية العامة الفخمة على الأكربوليس (تل أثينة المقدس) وجدت في مصنعه صبيين أو ثلاثة صبيان، ونحو ستة أرقاء، وهو سيد هؤلاء وصاحب الأمر فيهم، ولكنه يعمل كما يعملون، لا فرق في ذلك بينه و بينهم، وهو في العادة يحسن معاملة عبيده ويأجرهم على عملهم كما يؤجر الأحرار، ولا يلبث أولئك الأرقاء أن يقتصدوا من أجورهم ما يشترون به حريتهم إذا شاءوا، ولذلك كان الأرقاء الأثينيون يتحررون على الدوام، يشترون حريتهم بالمال تارة أو ما أدوا لسادهم من عمل متواصل طويل تارة أخرى. وكان المصنع أشبه بمرسم فنان منه مصنع من مصانع هذه الأيام، وكان الأثيني نفسه أشبه في عاداته وأحواله بالفنان منه بالصانع الحديث، فكان لا يعمل إلا إذا اشتهي العمل، وكان عمله لا يعوقه عن أداء واجباته المختلفة بوصفه مواطنا في الدولة وكان المصنع يقوم في الخلاء، ويشبه رواقا مكشوفا ذا عمد، وكان بهوه يغمره ضياء الشمس، وكان العمال يغنون أثناء العمل، ولعلك تسأل ماذا يعملون إذا أمطرت السماء ؟ فأقول إن

السماء قاما تمطر في تلك البلاد. وبعد الظهر يذهب الأثيني في أغلب الأحيان إلى الجمعية، ويقوم بنصيبه من أعمال الدولة.

والجمعية هي الهيئة الحاكمة في أثينة وتتكون من جميع الرجال الأحرار، ومن حق كل واحد منهم أن يتكلم فيها وأن يبدي رأيه بعد أن ينتهي الجميع من الكلام. وكانوا بهذا الاقتراع يفصلون في أعمال الدولة العادية، وفي شئون السلم والحرب والضرائب وما إليها. وكان يحدث في كثير من الأحيان أن عمل الأثيني الذهاب إلى الجمعية فلا يحضر جلساتها إلا إذا أعطى على ذلك أجرة. وإذا لم يذهب صاحبنا إلى الجمعية فربما ذهب إلى المحاكم ليفصل فيما يشجر بين مواطنيه من نزاع. وهو أينما ذهب وجد من الناس من يتحدث إليهم ؛ وإذا ما قابل في الطريق رجلا غريبا من غير أهل بلده حياه وسأله عما يفعل، وأغلب الظن أنه يذهب في المساء ليتعشى في دار صديق، وقد يحضر هذا العشاء معه عدد آخر من الأضياف يتراوح بين ستة وعشرة، يتناولون طعامهم وهم جلوس على أرائك، يطوف عليهم العبيد بالطعام، ولا يحضر النساء في العادة هذه الولائم. وإذا قضيت الوليمة – بل وفي أثنائها – يأخذ الرجال في الحديث، وكثيرا ما يقضون السهرة كلها دون أن يفارقوا حجرة الطعام.

فيم يتحدثون :

وفيم يتحدث الأثينيون ؟ يتحدثون في أي شيء وفي كل شيء، في العلم والفلسفة والتاريخ والسياسة والدين والحب، ويتحدثون عن البلاد الأجنبية وعن الموطن الأول للجنس البشري، وعن المكان الذي يذهب إليه الناس بعد الموت، ويتحدثون في مئات أخرى من الأشياء، لأنهم كانوا يهتمون بكل شيء، ويفكرون فيما لم يفكر فيه غيره من قبل. وهذا هو أول ما أقوله عن الحضارة اليونانية وأهم ما أقوله عنها : لقد كانت حضارة أنشأها رجال تحررت عقولهم من كل قيد، في مقدورهم أن يفكروا كما يريدون، وأن يقولوا ما يشاءون. ولا حاجة إلى القول بأن ذلك لا يصدق إلا على بعض اليونان، ولعله لا يصدق إلا على نفر قليل منهم.

وكانت حرية هذا النفر القليل وجرأتهم تؤدي إلى قيام المشاكل بينهم وبين سائر مواطنهم. ذلك أننا لا يمكن أن ننتظر من الناس أن يكونوا كلهم أذكياء عقلاء في وقت واحد حتى لو كانوا يونانا. لكن العدد القليل من الأذكياء النابهين هم الذين كان لهم شأن في البلاد، ولم يكن هؤلاء يخشون آلهتهم ولا مواطنيهم، ولم يكونوا يرون أن شيئا من عمل الآلهة وآخر من

عمل الشيطان ؛ وكانوا أكثر شعوب الأرض بحثا عن الحقيقة، فكانوا يتكلمون في كل شيء، ويتباحثون في كل شيء.. ولن يستبين القارئ كيف كانت هذه الحرية العقلية، وهذه المرأة العقلية شيئا غير مألوف إلا حين نقص عليه قصة الحضارة اليونانية. وبفضل حديثهم ودهشتهم وبحتهم وكشفهم وضعوا أسس كل ما يعني به المتحضرون من الخلق في هذه الأيام، أسس العلم والفلسفة والفن والسياسة. فاليونان هم الذين ابتدعوا هذه كلها تقريبا، ومن أجل هذا كانت الحياة لديهم مثيرة لحواسهم ومنبهة لأفكارهم.

أول الأطباء والمؤرخين :

وكان أول أطباء اليونان أبقراط (من ٤٦٠ – إلى حوالي ٣٧٠ ق.م) وكان يعيش في جزيرة كوس Cos ولسنا ننكر أن معظم ما قاله أبقراط عن جسم الإنسان غير صحيح، ولكنه وضع الأسس التي بني عليها غيره من بعده، وضعها هو وطبيب بوتاني آخر يدعى جالينوس (١٣٠ – ٢٠٠ ب.م) عاش في رومة بعد زمنه بخمسمائة عام. ولقد عرفنا نحن الكثير من أصول الطب التي لم يكن يعرفها أبقراط، ولكن الأطباء لا يزالون يحاولون أن يتبعوا مبادئ السلوك التي وضعها لهم، وهي أن

يساعدوا مرضاهم بكل ما في وسعهم، وأن لا يلجئوا إلى السحر والرقي، وأن لا يعطوا المريض سما، ولا يفشوا أسراره، ولا يدخروا وسما في مساعدة كل من في البيت الذي يزورونه.

وكذلك كان اليونان أول المؤرخين، أي أول من سجلوا أقوال غيرهم من الناس وأعمالهم، وحاولوا أن يجعلوا مما حدث في العالم قصة متصلة. وقد سافر هيرودوت (٤٨٤ – ٤٢٥ق.م) إلى بلاد بعيدة ومنها بلاد مصر، ونقل عنها قصصا غريبة، وأرخ حروب اليونان والفرس. وكتب توسيديد (حوالي ٤٧٠ – ٤٠٠ ق.م) – وهو من أشهر المؤرخين في العالم – تاريخ الحروب التي قامت بين اليونان بعضهم وبعض كالحروب بين أثينة وأسبارطة، واشتهر توسيديد بأنه أول من حاول كتابة تاريخ نزاع بين طائفتين دون أن يتحيز إلى إحداهما.

أول العلماء والفلاسفة اليونانيين :

ودرس اليونان علم الهندسة، ولعل كثيرين ممن يقرأون هذا الكتاب قد سمعوا عن إقليدس (٤٥٠ – ٣٧٤ ق.م)؛ وإذا لم تكن أنت أيها القارئ قد سمعت به فستسمع به قريبا. ولربما وجدت ما يقوله صعبة، ولم تر قائله إلا رجلا ألف كتابا مدرسياً ثقيلاً مملا عن المثلثات والزوايا القاعة. فإذا كان ذلك رأيك في

إقليدس فهو شيء يؤسف له حقا، وذلك لأنه كان رجلا عظيما جدا، استطاع بقليل من الرمل المفروش على الأرض أن يكشف أصول علم الهندسة.

وكتب إقليدس كتاباً ظل باقياً بعد أن فني العالم الذي عرفه ذلك الرجل، و بعد أن غزا الرومان بلاد اليونان، وغزا البرابرة بلاد الرومان، واستعان البرارة هذا الكتاب على أن يتعلموا ويصبحوا أقواما متحضرين، نشأت من سلالتهم تلك الشعوب الأوروبية والأمريكية التي ساهمت في الحضارة بأكبر نصيب.

ولا يدرس الطلبة في المدارس كتاب إقليدس في هذه الأيام، ولكن مؤلف هذا الكتاب درسه في المدرسة أيام كان طالبا، وهو أمر إذا فكرت فيه وجدته عجيب حقا، لأن الهندسة كما تعلم علم من العلوم الطبيعية، وليس ثمة شيء تبلى فيه المعلومات القديمة ومهمل كما تبلى وتهمل في العلوم الطبيعية، ولكن هأنذا من خمس وعشرين سنة أو نحوها كنت أقرأ كتاب إقليدس الذي كتبه من ألفين وأربعمائة سنة. وكان أكثر ما يتحدث فيه الأثيني أثناء طعامه وأهم ما يتحدث فيه هو الفلسفة. والفلسفة بحث من نوع معين في كل شيء، في الفرق بين الحق والباطل، وهل هناك آلهة، وما صفاتها ؟ ومن أي شيء يتكون العالم ؟ وكيف بدأ ؟

وكيف يعيش الناس في المجتمع ؟ وهل من حق الناس أن يكون لديهم عبيد ؟ وهل اللذة هي أهم ما في الحياة ؟ وفي مئات أخرى من الموضوعات المماثلة لهذه. وبدأ اليونان هذه البحوث من ألفي سنة، ولا تزال موضوعاتها مثارة للجدل حتى يومنا هذا. وكانت لهم فيها آراء عجيبة متنوعة. ومن أعظم رجالهم سقراط (حوالي ٤٧١ – ٣٩٩ ق.م)، وكان من عاداته أن يذهب إلى السوق العامة ويسأل الناس أسئلة تحيرهم كالأسئلة التي يواجه بها الأطفال الكبار في بعض الأحيان، والتي تضايق الكبار حين يرون أنهم لا يستطيعون الإجابة عنها، وقد كانوا يظنون أن ذلك في مقدورهم.

وقد تضايق الأثينيون من سقراط فاتهموه بإفساد عقول الشباب، وحكموا مليه بتجرع السم، وكان هذا من أسوأ ما فعله الأثينيون.

ومن أشهر رجالهم أيضا أفلاطون (٤٢٧ – ٣٤٧ ق.م)، وكان من تلاميذ سقراط، وقد كتب معظم تعاليمه فيما نسميه « محاورات أفلاطون » وهي أحاديث تدور بين عدد من الناس يجتمعون ويتحدثون مما. وكان أفلاطون هو الذي يبدأ الحديث عادة بأن يلقي على المجتمعين أسئلته المحيرة حتى إذا لم يستطع

أحد أن يجيبه عنها جوابا شافيا حاول هو نفسه أن يجيب. وتعد هذه المحاورات من أعظم كتب العالم وأكثرها حكمة، ولا يزال الذين يعنون بالمعرفة من الناس يشغفون بقراءتها كما كان الناس يشغفون بها في جميع العصور.

وجاء بعد أفلاطون أرسطاطاليس (٣٨٤ – ٣٢٢ ق.م)، وكان من أكثر الناس بحثا عن الحقيقة، فقد حاول أن يعرف حقيقة كل شيء، حقيقة النجوم وحقيقة تركيب الأشياء، وكيف يعمل العقل، وما هي أنواع الحيوان، وما غاية الإنسان في الحياة ؟

وليس في وسعي أن أبدأ الكلام على الأجوبة التي أجاب بها اليونان عن هذه الأسئلة التي أثيرت في مجتمعاتهم. ذلك أن أكبر أسباب عظمة أولئك الناس أنهم لم يجيبوا عن هذه الأسئلة، وذلك حقا من أغرب الأمور. ولقد حاول كثيرون مما جاءوا بعد اليونان أن يجيبوا عنها، وظنوا أنهم وفقوا إلى هذه الإجابة، ولكن معظم إجابتهم كان خاطئا، ومع ذلك فإنهم كانوا يصرون على أنه صحيح، و آذوا من أجابوا بغير ما أجابوا به هم. أما اليونان فكانوا هم وحدهم الذين يستمعون إلى كل جواب، لأنهم كانوا يعتقدون أن السؤال الواحد قد يكون له عدة أجوبة ؛ وكانوا يتركون الناس أحراراً يجيبون بما يشاءون. ولعل المبدأ السائد

عندهم والذي يتفق عليه معظمهم أن من واجب الإنسان أن يلم بالقليل من كل شيء، وألا يقصر جهوده على التخصص في شيء واحد، ويسمى هذا المبدأ مبدأ « التوسط » في الأمور، وهو من خير المبادئ دون شك.

على أننا يجب أن نذكر أن اليونان، وإن لم يدلوا رأي قاطعا في الأشياء التي كانوا يتحدثون عنها، كانت لهم فيها آراء مستنيرة واضحة. والحق أنهم كانوا أصحاب آراء مستنيرة في العالم الغربي. فنحن نراهم في مناقشاتهم يذمون الاسترقاق، ويحاولون أن يحرروا عقولهم من الأوهام، وأن يطالبوا مساواة النساء في الحقوق بالرجال، وأن يتطلعوا إلى اليوم الذي يصبح فيه العالم كله أخوة واحدة تنمحي منه الفوارق و تمتنع فيه الحروب، وهم أول من قال من الغربيين – ونقول من الغربيين لأننا يجب أن لا ننسى بوذا في الشرق – إن هذه الأشياء كلها مستطاعة.

ويجدر بي أن أتحدث عن شيئين آخرين قبل أن أطوى صحيفة اليونان، وهذان ها حكومتهم وفنهم.

فكرة الديمقراطية :

لقد قلت في مقدمة هذا الكتاب إن الكثرة الغالبة من حكومات العالم كانت حكومات قأسيا مستبدة ظالمة. ولم تكن الغاية التي تسعى إليها هذه الحكومات أن تفعل الخير للشعوب المحكومة، بل كان غرضها الوحيد أن تعمل لمصلحة الحاكمين. وكانت مقاليد الأمور عادة في يد أمير أو حاكم مستبد مطلق التصرف، يفعل بشعبه ما بريد. وكان يساعده في ذلك طائفة قليلة من أبناء الأسر الكبيرة يعاملهم كما يعامل الأطفال المقربون في المدرسة، ويساعدون الحاكم على أن يبقى الشعب بأجمعه خاضعة لسلطانه. وكان يحدث أحيانا أن تتولى الحكم هذه الأسر الكبيرة ولا يوجد معها أمير أو حاكم أعلى، وكان اليونان يسمون النوع الأول من الحكومات حكومات استبدادية، ويسمون حاكمها مستبدة، ويسمون النوع الثاني حكومات أرستقراطية أو ألجاركية. وكانت الحكومات الاستبدادية والأرستقراطية هي الحكومات التي سادت العالم قرون عدة قبل أيام اليونان، وظلت هي النوع السائد قرونا كثيرة من بعدهم. ولكن المدن اليونانية وبخاصة مدينة أثينة ابتكرت نظاما جديدا من أنظمة الحكم سمي بالحكم الديمقراطي، وهو النوع المنتشر في معظم البلاد المتحضرة

في هذه الأيام.

والمبدأ الذي تقوم عليه الديمقراطية هو أن يحكم الناس أنفسهم، وقد عرفها بعضهم بقوله « الديمقراطية هي أن يحكم الشعب الشعب المصلحة الشعب ». ولا بد أن يوجد بطبيعة الحال أشخاص يسمون موظفين أو وزراء أو رؤساء، يتولون الأعمال الإدارية في الدولة، ويبحثون شئونها مع ممثلي الدول الأخرى، ويجمعون الضرائب وما إلى ذلك. ولكن الذين يؤدون هذه الأعمال في الدولة الديمقراطية ليسوا حكاما بأمرهم يفرضون أنفسهم على الشعب، أو أسرة تتوارث هذه المناصب، بل هم أشخاص يختارهم الشعب بنفسه، وهو الذي يدلهم بطريقة ما على ما يقولونه لممثلي الدول الأجنبية، ويحدد لهم بطريقة عامة ما يفرضونه من الضرائب، و رشدهم إلى كيفية تصريف شئون الدولة.

ولم يكن عدد الرجال في أثينة يزيد على أربعين ألفا، ولذلك كان في و سهم جميعا أن يحضروا الجمعية التي كانت تحكم البلاد، وأن يقرروا بأنفسهم سياسة الدولة. ولكن الذي كان يحدث في الواقع أن لا يحضر هذه الجمعية أكثر من ستة آلاف أو سبعة. أما في الديمقراطيات الحديثة التي يبلغ عدد سكانها عدة ملايين

فإن اجتماع هؤلاء السكان كلهم أو معظمهم التصريف الشئون مستحيل، ولذلك يفصل الشعب في شئونه بطريقة غير مباشرة، وذلك بأن يختار من النساء والرجال من يتولون هذا العمل بالنيابة عنه، وينفذون رغباته، ويسمى هؤلاء المنتخبون أعضاء المجالس النيابية ؛ و يختار من بينهم في معظم البلاد الديمقراطية عدد قليل من الوزراء يدرون دفة الأمور، وينتخب أعضاء البرلمان مرة كل خمس سنين في إنجلترا ومصر، وإذا لم ينجحوا في تنفيذ رغبات الشعب أو إذا عجزوا عن تصريف الشئون على الوجه الأكمل، فإن الشعب لا يختارهم للنيابة عنه في الانتخابات التالية، بل يختار غيرهم.

وإذا فكرت في هذا النظام تبين لك أنه هو النظام الوحيد الذي يستطاع به تصريف شئون المجتمع، بحيث يضمن في النهاية تحقيق رغبات الكثرة الغالبة من الشعب. وهو في واقع الأمر النظام الوحيد الذي يمنع الأفراد والحكام من ظلم الرعية، واستخدام سلطانهم في قضاء مصالحهم الخاصة. ومن هذا يرى أنا مدينون إلى اليونان بالشيء الكثير لأنهم أوجدوا هذا النوع من الحكم.

الرومان واليونان :

وجدير بنا ونحن نثني على حكومة اليونان أن نذكر أنهم كانوا ضعافا وقليلي العدد، وأنهم كانوا يعيشون في مدن متفرقة كل واحدة منها مستقلة عن الأخرى، أعظمها شأنا مدينة أثينة، وأن حريتهم و استقلالهم وقدرتهم على أن يفعلوا ما يشاءون كانت من أسباب النزاع والحروب التي قامت بينهم. ومن أجل هذا استطاع الرومان الذين عظمت قوهم بعد العهد الذي نتكلم عليه بنحو ثلاثمائة سنة أو أربعمائة أن يتغلبوا على اليونان وأن يستعبدوا العدد الأكبر مهم.

ولكن اليونان كانوا أكثر من الرومان حضارة، فاستطاعوا لذلك أن يُعلّموا سادتهم أشياء كثيرة لم يكن هؤلاء يعرفونها من قبل، وأمكنهم في آخر الأمر أن يحضروا حكامهم. ولذلك فإن الدولة الرومانية التي عاشت او خمسمائة عام، وبسطت سلطانها على الجزء الأكبر من العالم المعروف وقتئذ، كانت في واقع الأمر امتدادا للحضارة اليونانية.

غير أن الرومان، وإن أخذوا كثيرة من الأفكار اليونانية وحاولوا الاحتفاظ بها، لم يفلحوا إلا في إفساد معظم ما فيها من خير. نعم إنهم حاولوا أن يقلدوا اليونان في كل شيء، ولكنهم لم

يستطيعوا أن يحسنوا هذا التقليد، فكانوا كالغراب الذي حاول أن يقلد مشية العصفور.

الفن اليوناني :

كتابة المسرحيات - إن ما يسميه الناس فنا معناه إبداع الأشياء الجميلة التي ذكرتها في مقدمة الكتاب، وقلت إنها من أهم أسباب الحضارة. والأشياء الجميلة تصنع عادة من الحجر أو بالألوان على القريش، أو تكون أصوات جميلة. وإذن فالنحت والتصوير والموسيقى هي أهم الفنون الجميلة. وقد تكون هذه الأشياء الجميلة ألفاظا مكتوبة وهذه تسمى فن الأدب.

والقصص التمثيلية - وهي فرع خاص من فنون الأدب – تسمى مسرحيات – ولقد برع اليونان في الفنون جميعها، ولكن أعظم ما رعوا فيه منها هو النحت والتمثيل ؛ وأشهر كتاب المسرحيات منهم إسكلس (٥٢٥ – ٤٥٦ ق.م) وسفكليز (٤٩٥ – ٤٠٦ ق.م) ويرنديز (٤٨٠ – ٤٠٦ ق.م) وهؤلاء أشهر كتاب المسرحيات في العالم لا يفوقهم في هذا إلا شيكسبير. وقد كتب سفكليز، وإسكلس مسرحيات غاية في الجمال والقوة، تظهر عجز الإنسان أمام الأقدار. ولما كان يرديز أرق كثيرة من العصر الذي يعيش فيه، فقد كان يرى أن النساء من بني الإنسان

ويجب أن يعاملن معاملة الإنسان، وأن من واجب الإنسان أن يحسن معاملة الأرقاء والفقراء والبائسين.

وقد حاول الكتاب الثلاثة جميعا أن يظهروا للناس أن الذين يلاقون شيئا قليلا من النجاح يفترون بأنفسهم، ويتعالون على غيرهم، ويفخرون بعملهم، ويظنون أنهم أرقى الخلائق كلهم، وأن من يفعلون هذا تحل هم المكاره من حيث لا يشعرون، لأن الآلهة لا تحب أن يتفاخر الناس ويتعالوا على غيرهم، ويغتروا عما يصيبون من نجاح في هذا العالم.

ومن كتاب الملاهي اليونان أيضا إرستفانيز، وقد ملأكتاباته بالسخرية من الناس ومن أعمالهم وشئونهم. وكان من عادة اليونان أن يعقدوا مباريات في كل عام لكتاب المسرحيات، وأن يخصصوا جائزة تعطى لمن يكتب أحسن مسرحية ؛ وكان النظارة هم الذين يحكمون بين المتبارين، فكانوا يجلسون ساعات طوالا في المسارح المقامة في الخلاء يستمعون إلى المسرحيات التي يعرضها عليهم المتبارون، ويصدرون فيها أحكامهم، وكان الذي يفوز مهم يعد أعظم رجال أثينة قدراً

الفنانون :

ليس من السهل أن نتحدث إلى القاري عن المهندسين والمثالين اليونان أو أن تمتدح معابدهم وتماثيلهم، لأنه يصعب علينا أن نقول لم يلهج الناس بذكرها. لكن الحقيقة التي لا تقبل الجدل أن أناساً كثيرين قد شيدوا معابد وصنعوا تماثيل، ولكن معابدهم وتماثيلهم نسيت كلها فلا يكاد أحد يذكرها في هذه الأيام. أما اليونان فقد كتبوا كتباً وشيدوا مبانى ونحتوا تماثيل لم ينسها الناس في حياة من أقاموها، ثم بقيت حتى يومنا هذا، ولا يزال العالم يحتفظ بها وبعدها من أثمن ما يحرص عليه ويعتز به. [ولا يجاريهم في هذا إلا المصريون الأقدمون،. فقد شيدوا هم أيضا معابد ونحتوا تماثيل، وصنعوا تحفة جميلة، تراها الآن منتشرة في متاحف أوروبا وأمريكا فضلا عن الكثير الذي يوجد منها في موطنها الأصلي. وقد بلغت هذه التحف من الكثرة جدا جعل كثيرة من الدول الأوروبية والأمريكية تخصص أقساما من متاحفها تحفظ فيها تلك الآثار المصرية الجميلة وهي تعتز بها وتعدها من أثمن ما ملكت]. وليس في الناس من يعرف سبب هذا الحرص والاعتزاز، لأن المباني ليست ضخمة فخمة، ولأن التماثيل لا تزينها الجواهر والأحجار الكريمة، بل هي بسيطة تبدو لأول نظرة

أنها أشياء عادية ؛ فأنت ترى تمثالا لشاب يستبق أو يقذف كرة، أو شيخا يفكر، وهذا وذاك أمر مألوف لا غرابة فيه، ولكن هذه التحف اليونانية البسيطة أجمل في الحقيقة من المباني الفخمة والجواهر والحلي التي تراها في غير بلاد اليونان، شأنها في ذلك شأن قارب التنزه الصغير الذي لا يزيد على قطع قليلة مستقيمة من الخشب، ولكنه يبدو أجمل من السفينة الضخمة الصينية أو الأسبانية ؛ أو شأن الغلام لاعب الكرة والمضرب الذي يبدو في ملابس اللاعب الساذجة أجمل من الأسقف في ثيابه المزركشة الفخمة، أو الوزير في حلته الرسمية، أو السيدة النبيلة في حليها وزينتها. ويؤسفنا كثيراً أننا لا نعرف عن التصوير والموسيقى عند اليونان إلا الشيء القليل. أما أعظم صور العالم الخالدة فأكثرها من عمل رجال كانت لهم حضارة لا تفترق كثيرا عن حضارة اليونان، أي حضارة مدن صغيرة أو دول مدن ازدهرت في إيطاليا بعد ألف وثمانمائة سنة من العهد الذي نتحدث عنه، أي بين سنتى (١٣٥٠، ١٥٠٠ م).

المصورون الإيطاليون والهولنديون :

كان المصورين الإيطاليون العظام أول من عرف كيفية استخدام الضوء والظل في الصور، واستهانوا هذه الطريقة على

جعل صور الآدميين تبدو مجسمة كأنها خلائق حية. ومعنى هذا أنهم لم يجعلوا هذه الصور تبدو طويلة عريضة حسب، بل جعلوها تبدو أيضا ذات سمك. وقد أتقنوا أيضا أن المنظور، أي أنهم استطاعوا أن يجعلوا أجزاء الصورة الواحدة تبدو على أبعاد مختلفة ممن ينظر إليها. لقد عرف كبار المصورين الإيطاليين أمثال ميكل آنچلو ورفائيل وليوناردو دا فنشي هذه الأشياء، وكانوا فنانين مهرة لأنهم عرفوها ؛ ولكن علمهم بها لم يكن هو الذي مكنهم من أن يرسموا صورة عظيمة، ولم تكن قدرتهم على أن يجعلوا صورهم تبدو كأنها حية ناطقة هي سبب عظمهم، بل إن هذا وذاك أسبانيا أخرى ليس من السهل الإدلاء بها والإفصاح عنها، ويبدو ذلك أكثر صعوبة في حالة المصورين الهولنديين.

وقد ظل هؤلاء المصورون الهولنديون نحو ثلاثة قرون (من ١٣٠٠ – ١٦٥٠) يرسمون صوراً أوفت على الغاية من الجمال. وكان ما صوروه أشياء عادية، كنهر و بلد وشارع وحجرة طعام، وامرأة تعزف على البيان، وخلائق يشربون ويتحدثون وكأنهم فيها أقوام أحياء لا صور صماء، يخيل إليك لأول وهلة أن ما تراه صور شمسية متقنة التلوين. وما من شك في أن تصور هذه الأشياء الحقيقية هذا التصور المتقن يتطلب من المصور درجة

كبيرة من المهارة، وما من شك أيضا في أن كبار المصورين الهولنديين أمثال فان ديك ورمبرانت وفرمير وأمثالهم قد برعوا في ذلك كل البراعة، وأنهم كانوا يجيدون منزج الألوان كل الإجادة، وأن صورهم تبدو كأنها كائنات حية ناطقة. ولكن هذا كله ليس هو السبب الذي يدعو الناس إلى تقديرها وإلى الاعتقاد بأن تصويرها من أعظم الأعمال التي أجادها بنو الإنسان، وذلك لأن الصور الشمسية هي أيضا شبيهة كل الشبه بالأشياء الحية الحقيقية، ولو أن كل ما لرسوم المصورين الهولنديين من قيمة أنها شبيهة بالأحياء من الناس والحيوانات، لكان مثلها في ذلك كمثل الصور الشمسية التي لا يهتم بها الناس ولا يتحدثون عنها كثيرة، هذا إلى أن في وسعنا أن نرى الأشياء الحقيقية التي نقلت عنها هذه الصور ؛ وما الفائدة التي تعود على الناس من رسم ما يستطيعون أن يروه هو نفسه ؟ وماذا نستطيع أن نقوله عن هذه الصور أكثر من أنها شبيهة بالكائنات الحية ؟ ولماذا يعجب بها الناس ذلك الإعجاب كله ؟ إنهم يعجبون بها لأنها جميلة، وهذا الجمال يشيع في نفوس من يعرفون كيف ينظرون إليها الغبطة والسعادة ؟ ولكن ما الجمال ؟ إن لهذا قصته، قصة طويلة ستقص عليكم يوما ما، ولا أستطيع أن أقصها عليكم في هذا الكتاب، لأنها قصة لا يستطيع أحد أن يرويها على حقيقتها حتى

في هذه الأيام ؛ وهذا مع الأسف كل ما أستطيع أن أقوله عن هذه الصور الجميلة.

الموسيقيون الألمان :

لم أقل عن التصوير إلا الشيء القليل، وأقل منه ما أستطيع أن أقوله عن الموسيقى. ومن الناس من يرون أن الموسيقى أثمن شيء في العالم، وأن الموهبة الموسيقية العظيمة أهم مقومات الحضارة. والموسيقى الشجية كالصور الرائعة من الأشياء الجميلة، ولكنك لا تستطيع أن تقول عنها غير هذا الشيء القليل، وستسمعون الكثير منها يوما من الأيام، وستعرفون حين تسمعونه لم يتحدث الناس كثيرة عنها. على أن هناك شيئا واحدا يجب أن أقول كلمة عنه، وهو هذا : كما أن جمال الصور لا ينحصر في أنها تشبه الأشياء التي تمثلها، كذلك جمال الموسيقى لا ينحصر في أنها تشبه الأصوات التي نعرفها كأصوات العواصف وخرير الماء، بل ولا في أنها توحي إلى الإنسان بإحساسات كالسرور والأمل أو جر الربيع. إن كثيرا من الموسيقى الشجية أشبه بقطعة من النسيج المنقوش المطرز، وتتخللها عادة نغمه خاصة كما يتخلل النسيج خيط ذهبي، في وسعك أن تتبينها وتتبعها ولا تغفل عنها وأنت تستمع إلى القطعة الموسيقية.

وأعظم موسيقى العالم هم الألمان، وخير ما أنتجوه من الموسيقى كان كله في المائة والسبعين سنة الواقعة بين ١٦٥٠، ١٨٢٠، في جزء صغير من بلاد ألمانيا والنمسا. ويعد الموسيقيون الألمان باخ (١٦٨٥ – ١٧٥٠)، وموزار (١٧٥٦ – ١٧٩١) وبيهوفن (١٧٧٠ – ١٨٢٧) من أعظم رجال العالم، وربما كان لموسيقاهم من الأثر في تحضير الناس أكبر مما كان لأي عامل آخر بمفرده.

الفصل الثالث

كشف الأشياء الجديدة

في وسعنا أن نقول بوجه عام إن اليونان كانوا أول الشعوب التي لم تخش أن تفكر تفكيراً حرة طليقا من كل قيد، فلم يكن من عادتهم أن يؤمنوا بشيء لأن رجال الدين قالوا لهم إن الآلهة تطلب إليهم أن يؤمنوا به، أو لأن رجال الدين أنفسهم يريدون منهم أن يؤمنوا به، أو لأن أسلافهم كانوا يعتقدونه، بل كانوا يحرصون على أن يبحثوا الأشياء مستقلين. وأعظم ما كانوا يهتمون به ما نستطيع أن نسميه الحقائق العامة الأسأسيا، أو مبادئ الأشياء ونهاياتها، وكيف كان العالم حين لم يكن في العالم إنسان ينظر إليه ؟ وهل للناس أرواح كما لهم أجسام ؟ وما معنى الخير ؟ وكيف يستطيع الناس أن يعيشوا معا في المجتمع خير معيشة مستطاعة ؟ وهذه الأسئلة وأمثالها هي أصول " الفلسفة".

ما كان يفعله العلماء :

أما العلماء وهم الذين تريد أن تحدث القاري عنهم في هذه

الصفحات، فكانوا يعنون ما حولهم من الأشياء التي يرونها بأعينهم، ويسمعونها بأذانهم، و يلمسونها بأيديهم، والتي يتكون منها ما نسميه العالم المادي. ولم تكن المسائل التي يهتم بها هؤلاء العلماء كالمسائل التي يهتم بها عامة الشعب والتي لا يمكن أن تكون الإجابة عنها قاطعة، بل كانت من المسائل التي يستطيعون أن يجيبوا عنها وأن يثقوا بأن إجاباتهم صحيحة. ولنضرب للنوعين أمثلة توضح ما نقصده بهذا القول. إذا أردت أن تعرف هل للناس أرواح، فليس في مقدورك أن تنظر إلى باطنهم لترى هذه الأرواح، وذلك لأن الأرواح ليست مما يمكن رؤيته بالعين، أما إذا شئت أن تعرف هل يجرى الدم في عروقهم وكيف يجرى فيها، فإن في وسعك أن تقطع جزء من الجسم وتنظر فيه. والعمل الذي يقوم به إنسان ليتحقق به من صحة ظنه يسمى تجربة، وإجراء التجارب هو الوسيلة التي ارتقي بها العلم.

أو لنفرض مثلا أن إنسانا قال لك إنك إذا وضعت مقبض لفة من الأسلاك الكهربائية في الماء،فإنك تستطيع أن تحدث فيمن يقبض عليها هزة كهربائية أشد مما يحدث له لو لم تكن في الماء، وتريد أن تعرف هل ما سمعته صحيح أو غير صحيح. إنك في هذه الحالة تأخذ اللفة وتطلب إلى شخص أن يمسك بمقبضها

وهي في الماء، ثم توصل بها التيار وترى بنفسك ما يحدث. وأنت في هذه الحال تجري تجربة وتفعل ما يفعل العلماء. فالعالم لا يجلس إلى مكتبه ويجهد نفسه في التفكير ليقرر أن الأشياء يجب أن تكون على هذه الصورة أو تلك، بل يجرب الأشياء نفسها ويعرف بالضبط حقيقتها، وهو لا يعرف أن للزهرة طلعة وأعضاء للتذكير وأخرى للتأنيث بالتفكير والمنطق، بل يمسك الزهرة ويرى بعينه أجزاءها المختلفة.

وبتلك الطريقة، طريقة التجارب والنظر إلى الأشياء لمعرفة حقيقتها، الا بالتفكير فيما يجب أن تكون، وصل العلماء إلى اكتشافاتهم.

وقد بدأ هذا النوع من العلم يعظم شأنه حوالي عام ١٥٠٠ ب.م ؛ أما قبل ذلك العهد فيما يعرف بالعصور الوسطى فكانت الكنيسة تقف في سبيل العلم وترى أن البحث الحر في طبيعة الأشياء من أكبر الآثام.

ولكن في منتصف القرن الخامس عشر بدأت نهضة علمية عظيمة، وعاد الناس يقرءون ويبحثون كما كانوا يقرءون ويبحثون في أيام اليونان الأقدمين، ويجدون للكشف عن الأشياء الجديدة،

ولا تزال هذه حالهم إلى وقتنا الحاضر.

وليس هذا الكتاب كتاب علم، ولذلك لا أستطيع أن أذكر فيه إلا قليلا جدا من الأشياء التي كشفها العلماء، وكان لها أكبر الأثر في حياة الناس.

وقبل أن أتكلم على هذه الأشياء سأذكر كلمة قصيرة عن العرب الذين كان لهم فضل كبير على الحضارة القائمة في هذه الأيام.

العرب :

في القرن السابع بعد الميلاد نهضت بلاد العرب نهضة عجيبة من عدة وجوه كان لها تأثير عظم في معظم بلاد أسيا وأفريقيا وفي جزء غير قليل من بلاد أورية. وكان ذلك على أثر ظهور الدين الإسلامي وانتشاره في أجزاء العالم السالفة الذكر.

وأهم شيء في الدين الإسلامي أنه يدعو صراحة إلى الإيمان بإله واحد، ويحث على المبادئ الخلقية الفاضلة. وقد قضى هذا الدين على الحروب التي كانت تقوم بين القبائل المتعادية في بلاد العرب، وألف منها كلها دولة واحدة قوية، نشرت دينها و آدابها في أنحاء العالم.

فضل العرب على العالم :

العرب هم الذين نقلوا علوم اليونان والرومان إلى العالم، فقد ترجموا هذه العلوم إلى لغتهم وأضافوا إليها كثيرا مما وضعوه هم أنفسهم ؛ ونقل الأوربيون عنهم هذه العلوم، وأهمها كلها علم الجبر الذي اخترعه العرب أنفسهم، وعلم الكيمياء الذي زادوا عليه كثيرة، وعلم الطب الذي تقدم على أيديهم تقدما عظما، وابن سيناء من أشهر هؤلاء الأطباء.

الفنون الجميلة :

ونبغ العرب في الفنون الجميلة والتصوير. ويلاحظ أن الصور التي تركها العرب تتألف كلها من أشكال هندسية مختلفة، وأنها خالية من صور الإنسان، وكذلك لم يصنع العرب تماثيل ولكن ما تركوه من الصور جميل حقا، ولا تزال تشاهده في المساجد التي أقاموها في العصور المختلفة.

وللعرب أشعار جميلة كانوا يحفظونها أولا عن ظهر قلب، ثم دونوها بعد ذلك في كتب كتبوها أولا بأيديهم، ثم طبعت في الأيام الأخيرة.]

العصور المظلمة :

ثم جاءت فترة من الزمن نسيت فيها معظم هذه العلوم، وخم الجهل على عقول الناس، وانتشرت بينهم الخرافات، وتسمى هذه الفترة بالعصور المظلمة، ودامت حتى منتصف القرن الخامس عشر حين بدأت العلوم تنتشر بين الناس من جديد. ومن هذه العلوم علم الفلك. كان أول علماء الفلك في العصور الحديثة رجل من أهل بولنده يدعى كپرنيق عاش بين سنتى ١٤٧٣ – ١٥٤٣ ب.م، ورجل من أهل إيطاليا يدعى جلليو عاش بين عامي ١٥٦٤ – ١٦٤٢. وقد أثبت كبرنيق أن الأرض ليست مستوية ولا ثابتة، وأنها ليست مركز الكون، وقد أعانت هذه الكشوف الناس على أن يعرفوا الشيء الكثير عن العالم المادي، وكانت اساس علم الفلك الحديث. وواصل جلليو عمل كبر نيق، وقام النزاع بينه وبين الكنيسة حين قال إن الأرض تتحرك.

نيوتن وهارفي :

وكشف رجل إنجليزي يدعى إسحق نيوتن عاش بين سنتى ١٦٤٢ – ١٧٢٧ حقائق عن العالم المادي أكثر مما كشف إنسان غيره مفرده ؛ وأهم ما يشتهر به نيون « قانون الجاذبية ».

وكان الناس قبل نيوتن يظنون أنك إذا أسقطت شيئا وقع هذا الشيء على الأرض لأن الأرض تجذبه إليها. وشيء من هذا هو الذي يحدث فعلا، ولكن هذا الجذب ليس خاصا بالأرض، بل هو مثل للتجاذب الذي يحدث بين الأشياء كلها ؛ فكل شيء في الواقع يجذب نحوه كل شيء آخر ؛ ولكن جذب الأشياء بعضها بعضا لا يشاهد في الحياة اليومية لأن جذب الأرض لهذه الأشياء أقوى منه كثيرا. ولم يكتف نيوتن بأن يقرر أن كل جسم يجذب إليه كل جسم آخر بل قدر بالضبط قوة هذا الجذب وتأثرها بعد الأجسام المتجاذبة ومقدار كتلتها أي مقدار ما فيها من المادة. وقد قام في هذه الأيام عالم ألماني يدعى أينشتين لازال حيا (ولد في عام ١٨٧٩)، وأدخل على قانون نيوتن بعض التغيير، وبدل فكرتنا القديمة عن العالم من عدة وجوه. ولكن أينشتين ما كان يستطيع أن يقوم بعمله لولا ما عمله نيوتن من قبله.

وبينما كان نيوتن يكشف القوانين التي يسير عليها العالم المادي كان رجل إنجليزى آخر يدعى هارفي (١٥٧٨ – ١٦٥٧) يكشف عن تركيب أجسامنا. وأهم ما في أجسامنا هو الدورة الدموية ؛ وذلك أن الدم الذي يجرى في الجسم يحمل الغذاء والهواء إلى جميع أجزائه، ولولا الهواء والغذاء لما استطاعت تلك

الأجزاء أن تؤدي وظائفها. وإذا وقفت حركة الدم وقف عمل الجسم كله، وهذا هو الذي يحدث حين يموت الإنسان. ومع أن حركة الدم في الجسم كانت معروفة من أيام اليونان، فإن هارفي هو الذي كشف عن عمل القلب في هذه الحركة. فالقلب شبيه بالمضخة وهو يدفع إلى الجسم الدم الجديد النظيف، ويتلقاه منه أسود قذرة، فيرسله إلى الرئتين لينظف فيهما، ثم يعود إليه فيرسله إلى أجزاء الجسم من جديد. ولما كشف هارفي عن هذه الحقيقة كان ذلك بداية تقدم مطرد في العلم بجسم الإنسان، وأصبحت المعارف الطبية لأول مرة معارف عالمية، أي أن الناس بفضل أعمال هارفي بدءوا يعرفون أسباب ما يحدث في الجسم.

دارون ونظرية النشوء والارتقاء :

وحدث تغير آخر عظم في آرائنا على إثر كشف مبدأ النشوء والارتقاء، وهذا المبدأ يرتبط باسم عالم إنجليزي آخر عظم هو تشارلس دارون (١٨٠٩ – ١٨٨٢). وأهم ما كتبه في هذا الموضوع كتابه المعروف باسم أصل الأنواع (The Origin of Species). وكان العمل العظيم الذي عمله دارون هو انه كشف الطريقة التي تتبدل ها الكائنات الحية وتتكاثر وترتقي على ظهر الأرض. وكلنا يعرف أن الأرض كانت في يوم ما خالية من الحياة

لأرن حرارتها الشديدة لم تكن تسمح بوجود الحياة عليها ؛ ولا يزال أصل الحياة الأول مجهولا إلى الآن، ولكننا تعرف أن الكائنات الحية الأولى كانت كالسمك الهلامي، وأنها لم تكن تتعدى شواطي البحار وقيعاها. والآن توجد آلاف مؤلفة من أنواع الكائنات الحية، (فنحن نعرف ثمانية وعشرين ألفا من أنواع الطير وحده)، وهذه الأنواع منتشرة في جميع بقاع الأرض.

وهذا التغير في الكائنات الحية من أبسط صورها إلى آلاف أنواعها المتعددة المنتشرة على سطح الأرض هو ما يعرف بعملية النشوء والارتقاء، وهي العملية التي كشفها دارون. ولم يكن عمله مقصورة على كشف كيفية حدوثها، بل كشف أيضا بعض أسباب هذا الحدوث. فقد يحدث من حين إلى حين أن تلد بعض أنواع الكائنات الحية صغاره من نوعها تختلف بعض الاختلاف عن آبائها، وقد لا يكون هذا الاختلاف كبيرة ولا خطيرة – فقد لا يزيد على أن يكون الأبناء أطول أعناقا وأقصر سياقنا من الآباء، ويسمى هذا الاختلاف « تحولا». ولم يكن العالم البدائي مما يسهل فيه الحصول على الطعام، لأن ما كان فيه منه لم يكن يكفي جميع الكائنات الحية، فإذا أراد أحدها أن يحصل على نصيب منه كان عليه أن يقاتل ويكافح أو يخاتل ويسرق ؛ وكان

من الواجب عليه وهو يبحث عن طعامه أن يذكر على الدوام أنه هو نفسه طعام لكائن حي آخر أقوى منه جسمها أو أسرع حركة يترقبه لمسك به ويتخذه طعاما له. وهذا التنافس المستمر بين الكائنات الحية للحصول على كفايتها من الطعام، وهذا الحذر المستمر من جانب الكائن الحي من أن يكون هو طعاما لغيره، هو ما يسميه دارون « تنازع البقاء ».

ولنفرض أنك كنت أنت الكائن المتحول، أي أنك تختلف عن آبائك وجيرتك. إن هذا الاختلاف قد يكون عونا لك على الحياة أو عقبة تقف في سبيلك أثناء تنازع البقاء بينك وبين بني جنسك. فإذا كان عقبة في سبيلك مت جوعا أو كنت طعاما لغيرك، وانتهى بذلك أمرك، أما إذا كان عونا لك فانك تعيش وتنجح، وتتزاوج مع حيوان يختلف هو أيضا بعض الشيء عن سائر بني جنسه كما تختلف أنت عن غيرك، وينتقل ما فيكم من اختلاف إلى أبنائكما، وبذلك يصبح هذا « التحول » صفة من صفات النوع، لأنه لم يكن تحولا فحسب بل كان ميزة أيضا. وتلك بالاختصار هي الطريقة التي ظن دارون أن الأنواع تتغير مقتضاها، وتتطور تطورا تدريجيا بطيئا بطبيعة الحال، لكنه تطور مستمر لا ينقطع أبدأ. وهذا التغير المستمر في الكائنات الحية هو

الذي يسمى نشوءا و ارتقاء، وقد حاول دارون أن يقص قصة هذا التغير وأن يظهر أن جميع الكائنات الحية التي تعيش الآن على ظهر الأرض قد تطورت من نوع أو نوعين من الكائنات الأولى البسيطة. وليس هذا في رأيه مقصورة على الحيوان الأعجم بل يشمل الإنسان أيضا، لأننا نحن أنفسنا من الكائنات الحية، وإذا كان غيرنا قد تطور في لا نكون نحن أيضا قد تطورنا. ورى دارون أننا تناسلنا من حيوان شبيه ببعض أنواع القردة الراقية، وأن القردة الكبيرة نفسها قد تناسلت من هذا الأصل عينه، أي أننا نحن و القردة أبناء عم أباعد.

وكان هذا الكشف صدمة عنيفة لآراء الناس في ذلك الوقت، فقد كان معناه أن الناس لم يكونوا ناسا منذ خلقوا، بل ارتقوا في أغلب الظن رقية تدريجيا من كائنات أخرى مختلفة عنهم. وأكبر الظن أيضا أنهم لن يظلوا أناسا كما هم، بل سيصبحون على مدى الأيام شيئا آخر مختلف عما هم عليه الآن. وهذا الكشف من أهم الكشوف العامية الحديثة، ولعله قد بدل أفكار الناس أكثر مما يدله أي كشف سواه.

العناصر والذرات :

وسأذكر قبل أن أختم هذا الفصل كشفا آخر أو مجموعة من الكشوف العادية الهامة تتصل بالمادة و بطبيعتها. لقد ألفنا أن نظن أن كل شيء في الوجود يتكون من المادة، لا فرق في ذلك بين المقاعد والمناضد وبين أجسام الناس وكتهم، أو بين النار والهواء والماء.

ولكن من أي شيء تتكون المادة نفسها ؟ هناك علمان يبحثان في هذه المسألة، أولهما علم الكيمياء وثانيهما علم الطبيعة. وقد شرع الكيميائيون يجرون التجارب على قطع صغيرة من المادة، واستطاعوا بذلك أن يثبتوا لنا أن الأشياء المختلفة التي تراها على ظهر الأرض تتكون في واقع الأمر من عدد قليل من أشياء أصغر منها جدا تتجمع في صور مختلفة، شأنها في ذلك شأن البيوت التي تختلف في الشكل والحجم واللون ولكنها كلها أو جلها مبنية من الطوب والحجارة التي لا تزيد أنواعها على عشرين أو ثلاثين، ولكن في وسعنا أن نبني منها مئات من أنواع البيوت المتباينة. فكيف نستطيع ذلك ؟ نستطيعه باستخدام كميات مختلفة من الطوب والحجارة وترتيبها بطرق مختلفة. كذلك وجد الكيميائيون أن كل الأشياء المادية – لا البيوت و حدها –

التي نشاهدها على سطح الأرض تبني من أنواع قليلة من الحجارة تتجمع بكميات مختلفة وترتب بطرق مختلفة. وهذه الحجارة التي يتكون منها العالم تسمى عناصر، وقالوا إن عددها اثنان وتسعون عنصرا، منها ما يشاهده الإنسان بعينه كالفضة و الرصاص، ومنها وهو أكثرها ما لا يوجد في الغالب إلا ممتزجة مع غيره من العناصر. وهذا الاختلاف في ترتيب العناصر وفي كمينها هو السبب فيما بين المواد من اختلاف، فهو السبب في اختلاف جسمك عن نبات الأرض، واختلاف النبات عن الحجر. ولكن كيف عرف العلماء ذلك ؟ لقد عرفوه بتحطيم الأشياء وتجزئتها، وأنت تعرف أنك إذا أخذت ساعة وفككت أجزاءها رأيت أنها تتكون من زمبرك ومن عدد من العجلات المختلفة. كذلك عرف الكيميائيون كيف يفككون أية قطعة من المادة يريدون تفكيكها ليعرفوا من أي شيء تتكون. وكانوا يجدون على الدوام أنها تتكون من كميات مختلفة من العناصر الاثنين السالفة الذكر. ومن الطرق التي استعانوا بها على تحطيم شيء ما أن يرفعوا حرارته لأن الشيء إذا ارتفعت حرارته ارتفاعا كافيا تباعدت العناصر التي يتكون منها بعضها عن بعض وظهرت أمام عين العالم. وعلم الكيمياء علم حديث النشأة، وقد حدثت كل الكشوف الهامة فيه في الثلثمائة السنين الأخيرة على يد العلماء

في غرب أوروبا وأمريكا، وهم الأمان والفرنسيون والإنجليز والإيطاليون والأمريكيون. بقي بعد ذلك شيء واحد تختتم به هذا الفصل، ذلك أنه قد تبين الآن أن هذه العناصر – أي الأحجار التي تتكون منها المادة – تتكون هي الأخرى من أحجار أبسط منها تسمى ذرات. ومن أي شيء تتكون الذرات نفسها ؟ لقد كشف العلماء في هذه الأيام أن الذرات تتكون من شيء شبيه بالكهرباء، وقد يكون هو الكهرباء نفسها. أي أننا إذا حطمنا الأشياء المادية المنتشرة في الكون كله وجدنا أنها كلها كهرباء.

[وقد أفلح بعض العلماء الإنجليز والأمريكيين مجتمعين في عام ١٩٤٥ في تحطم الذرة، وحصلوا من هذا التحطيم على قوة هائلة استخدموها أول الأمر في الحرب لتدمير المدن و إزهاق الأرواح، ولكنها في المستقبل ستكون من غير شك قوة هائلة ينتفع بها لخدمة الإنسان].

والعلم الذي يبحث في طبيعة الذرات، أي في القطع الصغيرة الأولية من المادة التي هي أساس كل شيء في الوجود وفي تركيب هذه الذرات نفسها، يسمى علم الطبيعة.

ما يمكن أن تفعله المادة :

وقد عرف العلماء وهم يبحثون في المادة ويتعرفون كنهها ويحللونها إلى عناصر بسيطة، ويحللون العناصر إلى ذرات والذرات إلى كهرباء، عرف العلماء وهم يبحثون في المادة على هذا النحو أشياء أخرى كثيرة. عرفوا مثلا ما يمكن أن تفعله المادة، وعرفوا مسلكها في الأحوال المختلفة ؛ فإذا حولت إلى بخار سلكت مسلكا ما، وإذا استحالت كهرباء سلكت مسلكا آخر. ولكنها سواء حولت إلى بخار أو بترول أو كهرباء ذات قوة عظيمة. فإذا كانت بخارا سيرت الآلات البخارية، وإذا كانت بترولا حركت السيارات، وإذا كانت كهرباء أضاءت وحركت المركبات والآلات، وإذا كانت فحماً ولدت حرارة [وإذا حطمت ذراتها أخرجت قوة لا يعرف حتى الآن كل ما قد تستخدم فيه]. وأراد الناس أن ينتفعوا بهذه القوى المختزنة في المادة فصنعوا الآلات، وغيرت الآلات من أساليب الحياة تغيراً واسع النطاق. وليس هنا مجال الكلام على اختراع الآلات وما كان لها من أثر في الحياة، فإن هذا قصة أخرى هي القصة التي تحكي عن كيفية استخدام الناس لما كشفوه في تيسير سبل الحياة وإسعاد الخلق، وهي جديرة بفصل مستقل بنفسه، ولكن يجدر بنا هنا أن نشير من بادى

الأمر إلى أن ما عرفه علماء الكيمياء والطبيعة في أثناء بحثهم في المادة وما تستطيع أن تعمله، هو الذي أعان الناس على أن يخترعوا الآلات وينشئوا بذلك حضارة من نوع جديد.

الفصل الرابع

كيف غير العلم أساليب الحياة؟

كيف استفاد الناس ما كشفه العلماء ؟ سأحاول في هذا الفصل أن أقول شيئا عن الطريقة التي غيرت بها الكشوف المالية التي وصفناها في الفصل السابق حياة بني الإنسان وجعلتها أسهل وأسعد و آمن. فالناس أصبحوا يعرفون أكثر مما كانوا يعرفونه من مائتي عام، ويقاسون من الألم أقل مما كانوا يقاسونه في ذلك الوقت، وعملهم اليوم أسهل، وهم أكثر عقلا وأقل خوفا. وتلك المسألة الأخيرة عظيمة الأهمية، ذلك أن الناس كانوا في معظم العصور الماضية شديدي الخوف من الحروب، والأوبئة والمجاعات، ومن أشياء أخرى وهمية لا وجود لها في الحقيقة. كانوا يخافون غضب الآلهة التي لا حصر لها، ويخافون الشيطان واللعنات والحسد والعفاريت، ويخافون أن عشوا تحت السلم، ويرهبون الظلام وأشياء أخرى كثيرة، ونحن نسمي هذا الخوف مما لا وجود له خوفا وهمية خرافية. ومن أهم ما أفاده الناس من العلم أن حررهم من هذه المخاوف الوهمية ؛ ذلك بأنه قد جعلهم أكثر

علم، وأرجح عقولا مما كانوا عليه من قبل، فعرفوا بذلك ما يخشى منه وما لا يخشى منه، وكانت النتيجة أن قلت مخاوفهم وأن أصبحت حياتهم أكثر بهجة وعقولهم أكثر استنارة. وجملة القول أنهم أصبحوا أكثر حضارة. وليس في وسعي في هذا الكتاب إلا أن أشير إلى عدد قليل جدا من الأسباب التي أدت إلى هذه النتيجة ؛ وسأبدأ بالكلام على جسم الإنسان.

إطالة الحياة البشرية :

في هذه الأيام يعيش معظم من يولدون من الأطفال ويكبرون حتى يصيروا رجالا شبابا وكهولا وشيوخا ؛ وقد تعودنا هذا حتى ظنناه أمراً طبيعياً، ولكنه أبعد ما يكون عن هذا، بل إن الأمر الطبيعي، أو على الأقل الأمر الذي كان مألوفة في عصور التاريخ الماضية، أن يموت معظم الأطفال بعد أن يولدوا بقليل، وأن يموت معظم من يعيشون قبل سن الشيخوخة. ومعنى هذا أنه بينما كان الشيء الأكثر حدوثا من أربعمائة عام أن موت الطفل في سن الطفولة، أصبح المألوف الآن أن يعيش الطفل حتى يبلغ الخامسة والأربعين. وكان يحدث في لندن من مائة وخمسين عاما على الأكثر أن يموت ثلاثة أطفال من كل خمسة قبل أن يصلوا إلى سن الخامسة، وأن يموت كل أطفال الفقراء الذين كانوا يربون

في الملاجئ إلا القليل منهم، بل إن كثيرين من أبناء الأسر المالكة، وهم الذين يظن الناس أنهم يعني بهم أشد العناية، كانوا يموتون عادة وهم أطفال. والآن يموت كثير من الأطفال الذين يولدون في الأكواخ الحقيرة في الأحياء القذرة أسرع مما يموت أبناء الأغنياء، ولكن الأولين– رغم هذا– تتاح لهم من فرص الحياة ثلاثة أضعاف ما كان يتاح لأبناء الأسر المالكة في العصور الوسطى. وقد سمع الكثيرون من الناس عن الوباء الذي انتشر في العالم عقب الحرب العالمية الثانية وأودى بحياة الكثيرين من الناس، وسمعوا أيضا بالأوبئة التي انتشرت قبل ذلك في العالم كالطاعون الذي فشا في لندن عام ١٦٦٥ [والكلورا التي انتشرت في مصر في أواخر القرن التاسع عشر]. ولكن الذي لا يعرفه الكثيرون أن أمراضا لا تقل عن هذه الأوبئة خطورة كانت متفشية في جميع مراحل التاريخ، وأن الموت كان يحصد الناس زمرة في جميع البلاد وفي كل الأوقات. وكان من أسباب هذه النسبة العالية المروعة في وفيات الصغار والكبار جهل الناس بحسم الإنسان، فقد كانوا يعتقدون أن الأمراض عقاب يحل بالبشر لغضب الله عليهم، أو لأن أجزاء الجسم قد اختلت من نفسها بغير سبب ؛ وكانوا إذا ارتفعت حرارة إنسان جرحوه لينزف دمه و يبرد جسمه.

الجراثيم سبب المرض :

لقد ذكرت من قبل شيئا عن كشف هارفي للدورة الدموية، وقلت إن هذا كان كشفا عظيما ؛ ولم يكن أقل من هذا أهمية كشف الجراثيم والتأكد من أنها من أكبر أسباب المرض. ويعود أكبر الفضل في هذا إلى كيميائي فرنسي ذائع الصيت يدعى باستير، عاش بين عامى ١٨٢٢ و١٨٩٥. وقد أثبت باستير أن كثيرا من الأمراض تنشأ من كائنات حية صغيرة جدا تدعي الجراثيم، تسكن الأجسام الحية و تعيش عليها وتسممها، وتعيش ملايين من هذه الجراثيم على جسمى و جسمك، وملابسي وملابسك، وطعانى وطعامك، غير أننا إذا كنا أصحاء وسليمي الجسم لم تؤذنا هذه الجراثيم في العادة، أما إن كنا متعبين أو منهوكي القوي أو أصابنا البرد هاجمتنا الجراثيم وسببت لنا الأمراض. وإذا جرحنا استطاعت أن تدخل إلى أجسامنا من هذه الجروح وتسممها. والبرد الذي يصيبنا إذا بت أقدامنا سببه تلك الجراثيم التي تهاجمنا إذا كنا ضعافا مهوي القوى، وإذا فسد جرح في أصبعنا فسبب هذا الفساد ما تسرب إليه من الجراثيم.

المجاري والمطهرات :

وكان كشف الجراثيم وعملها من أهم الكشوف العالمية، فقد عرف منه الأطباء أن من أحسن الوسائل لعلاج مرض ما أن تعرف طبيعة الجراثيم التي سببت هذا المرض وأن تقتل هذه الجراثيم، أو أن يساعد الجسم على قتلها. وأهم من هذا أن كشفها قد علم الناس أن يعنوا بأمر النظافة. فإذا شاهدت جراحا في هذه الأيام يجري عملية جراحية رأيته أولا يعني أشد العناية بغسل الأدوات التي يستخدمها في عمليته، وكل ما تمسه يده ؛ وهو لا إلي بغسلها بل يغلبها ويسمى هذا تطهيرا. والغرض من هذا التطهير آل الجراثيم التي تحملها هذه الأدوات كما يحملها كل شيء آخر، وذلك الآن الأقدار على اختلاف أنواعها موطن صالح للجراثيم. ولقد كانت عناية الأطباء بنظافة كل شيء تمسه أيديهم من أهم أسباب إطالة عمر الإنسان في مائتي السنة الأخيرة. ثم انظر إلى المجاري في المدن الكبيرة. إن هذا المجاري التي تتخلص منها البيوت من الأقذار على أختلاف أنواعها أمر جديد في الحضارة البشرية. لقد كانت مدن العصور الوسطى كريهة الرائحة لأنها لم تكن فيها وسائل لنقل مخلفات المنازل ؛ بل كانت هذه المخلفات تتراكم في البيوت والطرقات وتفسد ؛

وحينما توجد مخلفات متعفنة توجد الأوبئة وبخاصة وباء التيفود وما شابه من الحميات الخبيثة. وليست الرائحة الكريهة ذاتها هي سبب هذا المرض، بل سببه أن المواد المتعفنة تربة صالحة لنمو الجراثيم وتجمعها، ولهذا تنتشر الأمراض التي تسببها الجراثيم من المدن التي لا مجاري فيها. وقد جاء بعد باستير رجل إنجليزي بدعى لستر (Lister١٨٢٧ – ١٩١٢) استعان ما كشفه باستير من أثر الجراثيم في الأمراض وأصر على ضرورة العناية الشديدة بالنظافة حيث يوجد المرضى فأحدث بذلك انقلابا شديدا في المستشفيات و حجر العمليات في أيامه.

التخلص من الألم :

كانت المجاري والمطهرات سببا في إطالة الحياة و تقليل الأمراض وتخفيف وطأتها ؛ غير أنه كشف في نفس الوقت شيء آخر لا يقل أثره عن آثار كشف الجراثيم، لأنه خفف من آلام المرضى ؛ وذلك هو كشف المخدرات. إنك إذا ذهبت إلى طبيب الأسنان ليعالجك، وظن أنه سيسبب لك من الألم أكثر مما تشعر به عادة – كما يحدث عندما يخلع أحد أضراسك – جاءك بغاز إذا شممته نمت ولم تشعر بألم، وهذا الغاز نوع من أنواع المخدرات، وهو يستخدم عادة عند إجراء العمليات التي تستلزم

وقتا طويلا.

وقد يخيل إلى القاري أن كشف المخدرات أمر قليل الأهمية ؛ ولكن لعله لا يوجد بين الكشوف العامية كلها كشف كان له مفرده أثر في سعادة الناس مثل ما كان لهذا الكشف ؛ لأنه قلل من آلامهم وأزال خوفهم من الألم. والألم أي العذاب الجسمي الشديد هو أفظع شيء في العالم، فليتصور القارئ أنه جندي أصيب بجرح في ساقه، وأن هذه الساق قد تبتر بالمنشار من غير أن يكون هناك ما يخفف ألم هذه العملية. ومهما يكن في هذا من الفظاعة فإن أفظع منه مائة مرة أن يشق جسم الإنسان وهو يرى ويحس بما يفعل فيه. ومن أجل هذا كله كانت تجرى عمليات من هذا النوع في الزمن القديم، وكان الجراحون يستخدمون كل ما يستطيعون استخدامه لتخفيف آلام المريض، فكانوا يسكرون الجنود بالخمور، وكان المرضى يضربون على رؤوسهم ليفقدوا شعورهم. ولكن العمليات المعقدة التي يجريها الأطباء في هذه الأيام، والتي تستلزم تقطيع أجزاء من جسم الإنسان ووصلها بعدئذ، كانت مستحيلة، ولذلك كان موت عدد كبير من تنقذ حياتهم في هذه الأيام بعمليات جراحية تجرى اللهم في الوقت المناسب. قد لا يكون الموت أمرا فظيعا في حد ذاته، ولكن الألم

الشديد مع الموت أمر مروع حقا ؛ وإذا لم يكن في مقدورنا اليوم أن نشفي المرضى بمداواتهم أو بإجراء العمليات لهم، فإن في وسعنا على الأقل أن تخفف آلامهم، وأن نجعلهم يموتون وهم هادئون بإعطائهم قدرة قليلا من المخدر عند ما يشتد بهم الألم ؛ وإذن فقد أصبحت آلام الحياة أقل مما كانت بفضل كشف المخدرات.

ماذا كان يصنع الناس بأجسامهم ؟

وإذا غضضنا النظر عن علاج الأمراض وتخفيف آلامها، فإن ازدياد العلم بشؤون الجسم جعل الناس يحسنون التصرف في أجسامهم. لقد كانوا من قبل يشوهون أجسامهم تشوبها فظيعة بتأثير الخرافات والأوهام ؛ فكانوا يقطعون بعض أجزاء الجسم ويشوهونه ويلونونه بألوان غريبة، ويغرسون فيه قطعة من المعدن ؛ وكانوا يعرضون أجسام النساء بنوع خاص إلى الالتواء والتشويه بوسائل مختلفة، كان الباعث عليها كلها ما يسمونه « الطراز الجديد ». وكانت النساء في عصور التاريخ المختلفة يضمن حلقات من الحديد في أنوفهن، ويعلقن أثقالا في آذانهن، وكن يلوين أصابع أقدامهن حتى تصبح ملتوية، فكان النساء لا يمشين على أقدام بل على أوتاد صغيرة من اللحم، واتبعت عادة تشويه

الأقدام في بلدين من البلدان المتحضرة ها الصين وفرنسا في أيام لويس الرابع عشر، ولا يزال أثرها باق في الصين إلى يومنا هذا. وكان يطلب إلى النساء اللاتي يقمن في قصور أمراء إيطاليا في القرن السادس عشر ألا يزيد خصرهن على ثلاث عشرة بوصة ؛ وكن من أجل ذلك يضمن في وسطهن أطواقاً من الخشب وهذه الأطواق تزيل جلد خصرهن؛ وكانت قطع منها تدخل في لحمهن، وكانت ضلوعهن تلتوي وتركب بعضها فوق بعض. وكانت نساء أوروبا في العصور الوسطى يلبسن على رؤوسهن قلانس ضخمة ثقيلة لا يستطعن من ثقلها أن يقمن رقابهن منتصبة أكثر من ساعة أو نحوها.

أما في القرن الثامن عشر فكان النساء يعلقن في وسطهن على الجنبين سلة كبيرة تمنعهن من الجلوس. وكانت النساء الإنجليزيات في أواخر القرن الخامس عشر يلبسن حول رقابهن طوقا من النسيج المنتفخ يمنعهن من أن يشربن الحساء. ولا تزال عادة الاستمساك بالطراز الجديد من أسخف العادات، ولكنها في هذه الأيام لا تسبب من الآلام الجسمية ما كانت تسببه في الأيام الماضية، أو تشوه الجسم كما كانت تشوهه في سالف الأزمان.

الملابس :

ويلبس الناس الآن ملابس أكثر ملائمة للجسم مما كانوا يلبسونه من قبل ؛ وهذا أيضا أثر من آثار المخترعات العالمية، فقد كان النساء في القرن الثامن عشر يلبسن ملابس من الجلد والصوف الملبد يتعذر عليهن خلعها ولا يستطعن غسلها، ولهذا كان النساء يلبسنها حتى تبلى و تتمزق. وكان النساء الأوروبيات جميعا حتى الطبقات الراقية قذرات كريهات الرائحة بلا شك، و كن بسبب هذه القذارة يمتن بكثرة وفي سن مبكرة. وقد أدى استعمال القطن في ملابس النساء إلى تحسينها وإلى تحسين صحتهن تبعا لذلك، فقد صنعت منه ملابسهن السفلى وأصبح في استطاعتهن خلعها ولبسها وغسلها.

استخدام الآلات :

لكن استخدام القطن في الملابس لم يكن مستطاعة إلا بعد استخدام الآلات، وقد آن الوقت الذي نتحدث فيه عن التطورات الجديدة التي أحدثتها الآلات في حياة البشر، والتي جعلت المدنية الحاضرة مغارة لسائر المدنيات.

لقد قلنا في الفصل السابق إن العلماء قد عرفوا في الحقب

الماضية أشياء كثيرة جدا عن طبيعة المادة والقوى التي تعمل في العالم المادي، وهم بعلمهم هذا قد عرفوا كيف يستخدمون المادة في مصلحة الإنسان ويسخرون قواها لخدمتهم.

كيف تصنع الآلات ؟ وكيف استطاع العلماء ذلك ؟

إن هذه الصفحات لا تتسع لهذه القصة كلها ولذلك أكتفي بذكر خلاصتها : يستخرج الفحم والحديد من باطن الأرض، ويستخدم الفحم في تسخين الحديد، فإذا ذاب قطع و شكل وصور بالصورة التي تريدها أو صنع منه الصلب واستخدم الصلب نفسه كما يستخدم الحديد. وبهذه الطريقة تصنع الآلات أو أجزاء الآلات. ويستخدم الفحم لتسخين الماء حتى يغلى و يتحول إلى بخار، ويستخدم البخار في تحريك الآلات. والآلات نوعان : النوع الأول لصنع ما تحتاجه من الأشياء، والنوع الثاني النقل هذه الأشياء نفسها. ولما بدأ القرن التاسع عشر حدث تطور عظيم في الإنتاج فصارت الآلات تستخدم فيه بدل الأيدي ؛ ولم تكن الآلات تدار باليد بل بالبخار في أغلب الأحيان، وكثيرون منا قد سمعوا عن آلة ربرت آر كريت Robert Arkwright التي يغزل بها القطن الخام ثم تنسج من خيوطها الملابس والفرش وغيرها. ولما اخترعت هذه الآلة نشأت من

اختراعها صناعة القطن، وتحولت مقاطعة لنكشير بإنجلترا إلى مصنع واحد عظيم للمنسوجات القطنية، وصار يأتيه القطن من مصر والهند وأمريكا. [ويوجد في مصر مصانع عظيمة لنسيج القطن بالمحلة الكبرى يشتغل فيها آلاف من المال، و توجد مصانع أخرى مماثلة له في عدة مدن مصرية]. ولكن الآلات لا تستخدم في الصناعات القطنية وحدها، بل تستخدم أيضا في الصناعات المتصلة بالصوف والجلد والخشب والنحاس والقصدير، حتى أصبح كل ما تحتاجه الآن من أحذيتنا إلى ملابسنا، ومن البسكوت إلى عليه من صنع الآلات.

ما تعمله الآلات :

سنتحدث في الفصل التالي عما كان الاستخدام الآلات في صنع حاجيات الإنسان من أثر في حياة الناس، وسأذكر في ذلك الفصل شيئا عن حضارة هذه الأيام. أما هنا فأكتفي بذكر أثر واحد لها واضح كل الوضوح. إن الآلة تعمل أسرع كثيرة من الإنسان، وتنتج أيضا أكثر منه ؛ ومعنى هذا أن الآلة التي تستخدم في وقت معين وليكن ساعة مثلا تستطيع أن تنتج من الأشياء ما ينتجه عشرة رجال أو عشرين رجلا أو مائة رجل أو ألف رجل في نفس الوقت. إذن من الواضح أن من الخير أن

تستخدم الآلات وأن ينقل إليها العمل الذي كانت تعمله من قبل الأيدي البشرية. وهذا هو الذي حدث في جميع البلاد الغربية في المائة السنة الأخيرة وهو ما يحدث أيضا في غير البلاد الغربية ومنها مصر.

وإذا كانت آلة واحدة تنتج من السلع ما ينتجه مائة شخص فلا بد أن تكون لهذا نتيجة أو اثنتين، فإما أن يعمل الناس زمنا أقل مما كانوا يعملون قبل استخدام الآلات لينتجوا من السلع بقدر ما كانوا ينتجونه، وإما أن يعملوا كما كانوا يعملون فيزيد مقدار ما يخرجونه من السلع زيادة كبيرة جداً.

ومعنى هذا أن الناس يصبحون أكثر كسلا أو أكثر ثروة أو أكثر كسلا وأكثر ثروة في وقت واحد. وهم في الواقع كذلك، فهم أقل عملا وأكثر ثروة ولكن بطريقة غير التي كنا نتوقعها أو نرغب فيها.وهذا أيضاً من الموضوعات التي سنتحدث عنها في الفصل التالي.

الكهرباء والزيت والبترول :

والفائدة الثانية الرئيسية للآلات أنها تستخدم في نقل السلع التي تنتجها الآلات الأخرى من مكان إلى مكان. وقد

اخترع چورچ استيفنس ١٧٨١ – ١٨٤٨ أول آلة بخارية جرت على السكك الحديدية، وما لبثت إنجلترا وأوروبا وأمريكا وكثير من بلاد أفريقيا [ومنها مصر] وبلاد أسيا واستراليا أن انتشرت فيها في القرن التاسع عشر شبكة من الطرق الحديدية. ومنذ مائة وخمسين عاما تقريبا كشف عالم إنجليزي شهير يدعى فردای Faraday(١٧٩١ -١٨٦٧) الطريقة التي يمكن بها إطلاق الكهرباء المخزونة في المادة. فقد صنع فردای شرارة كهربائية قدر لها بعد وقت طويل أن تضيء العالم. وصنعت بعدئذ بطاريات، ثم صنعت بعد قليل المحولات الكهربائية. وسخرت لخدمة الإنسان قوة جديدة نستطيع الآن أن نتنبأ ما سيكون لها من أثر في المستقبل. وكشفت كذلك طريقة لتكرير الزيت الذي يخرج من الآبار والعيون في أجزاء كثيرة من العالم، فقد كرر هذا الزيت ثم كرر حتى صار بترولا إذا مزج بالهواء تحول إلى غاز، وهذا الغاز إذا ضغط في مكان محصور وسلطت عليه شرارة كهربائية تحدث فرقعة. والقوة التي تتولد من فرقعات متكررة أوجدت في العالم نوعا جديدا من الآلات استخدم في تحريك السيارات، ثم استخدم بعد ذلك في تسيير الطائرات. [وفي أواخر عام ١٩٤٥ استطاع العلماء أن يحطموا الذرة التي ذكرنا عنها شيئا من قبل، وأن يحولوا هذا الجسم المادي الصغير إلى قوة عظيمة شبيهة بقوة

الكهرباء سيكون لها أعظم الأثر في الصناعات وفي الحضارة بوجه عام].

العالم يصبح مكاناً واحداً :

وكان من أثر هذه المخترعات المختلفة – القطارات والسيارات والسفن البخارية والطائرات – أن أصبح في مقدور الناس أن ينتقلوا بسرعة عظيمة حول الأرض حتى لا يكاد يوجد على سطحها الآن مكان غير معروف، على أن هناك شيئا أهم من هذه الكشوف نفسها، وهو أن الناس في أنحاء العالم قد أخذوا يتعارفون ويتفاهمون ويتقابلون، ويتصل بعضهم بعض، وينشأ بينهم ما نسميه علاقات اجتماعية واقتصادية. لقد حدث في العالم ذهاب وإياب، ومكاتبة و مراسلة، واجتماع بين أشخاص من بلاد متباعدة، وحدث بينهم ما نسميه صلات دولية، وهذه الصلات الدولية قد قامت إلى جانب الصلات القديمة التي كانت قائمة بين الناس لأنهم كانوا يعيشون متجاورين في قطر واحد. فلنفرض مثلا أني عضو من أعضاء شركة تصدر التفاح من أمريكا إلى مصر. إنني في هذه الحالة أهتم برفاهية منتجي التفاح الأمريكيين، وبالرجال الذين يجلسون في مكاتبهم بنيويورك ليشرفوا على تصدير التفاح، أكثر مما اهتم برفاهية جار لي في

القاهرة قد لا أعرف عنه شيئا مطلقا. وهذا الاهتمام المتبادل بيني وبين أولئك الناس الذين يسكنون في أمريكا هو الذي يسمى بالرابطة الاقتصادية. وقد انتشرت في العالم في المائة والخمسين سنة الأخيرة روابط من هذا النوع كثيرة. والروابط الاقتصادية تستلزم روابط أخرى غير اقتصادية، منها مثلا أني لا بد أن أكتب إلى شريكي في أمريكا، وليس في وسعي أن أفعل ذلك إلا إذا كان ثمة نظام لنقل الرسائل وتوزيعها بين مصر وأمريكا، بل بين مصر وسائر بلاد العالم؛ وهكذا نشأ اتحاد البريد الدولي، وهذا النظام ومئات أخرى من أمثاله اتصل الناس بعضهم ببعض، وأخذت أجزاء العالم تتقارب وتطوي مسافاته، ويزول ما بين البلاد من فروق.

الفصل الخامس

انتشار المعارف

لماذا سقطت المدنيات؟

بلغت بعض الأقطار والمدن، بل بلغت جماعات صغيرة من الناس في بعض الأحيان، شأوا عظما في الحضارة. ولقد أشرت في الفصول السابقة إلى حضارة أثينة في القرن الخامس قبل الميلاد، وذكرت شيئا عن المصورين الهولنديين والطليان والموسيقيين الألمان. لكن حضارة من هذه الحضارات لم تخلد، وإن بلغت ما بلغت من الرق والعظمة، بل سقطت كلها، وكان من أسباب سقوطها أنها كانت محصورة في طائفة قليلة من الناس، فكانت أشبه بواحات خصبة صغيرة في محاري من الهمجية قفرة جرداء. وليس من الخير أن تكون أنت متحضرة إذا كان كل من حولك همجا، أو بعبارة أصح أن في ذلك بعض الخير، ولكنه خير معرض للخطر والزوال. ذلك أن الهمج لا ينقطعون عن الإغارة عليك ليدمروا حضارتك بعددهم الكثير وقوتهم الوحشية. وكثيرا ما حدث في عصور التاريخ المختلفة أن انقض الهمج من التلال

على الشعوب الأكثر مهم حضارة المقيمة في المدن والسهول، وغلبوها على أمرها، ودمروا حضارتها تدميراً. في القرن الثالث عشر أغار المغول القادمون من أواسط أسيا على بلاد الإسلام وعلى الجزء الأكبر من بلاد أوروبا ودمروا ما كان فيهما من حضارة؛ وعلى هذا النحو كان كل شعب يسبق جير انه في الحضارة يتعرض لغارة أولئك الجيران الذين يدمرون حضارته ويعيدونه إلى الهمجية ؛ ومثل المتحضرين في هذا كمثل من يبني صرحا عاليا دون عمد تسنده فيتعرض على الدوام لخطر الانهيار والسقوط إلى مستوى ما يحيط به من الأبنية.

أما حضارة هذه الأيام فهي منجاة إلى حد ما من هذا الخطر الداهم، وهذا مما يجعلها أقدر على البقاء من الحضارات القديمة. هذا إلى أنها أكثر منها انتشار فهي تشمل جزءا كبيرا من سطح الأرض.

كيف تنتشر المعارف؟

لقد تحدثت من قبل عن سببين من أسباب هذا الانتشار.. أولا كثرة الأسفار وسهولة سبل الاتصال، وثانيهما الرغبة المشتركة بين الشعوب المنتشرة في جميع أنحاء الأرض في الكسب وتحصيل المال. وأهم من هذين السببين جميعاً ما استحدثه العلم

من وسائل جديدة لنشر المعارف والثقافة في أنحاء العالم المختلفة ؛ وبفضل هذه الوسائل الجديدة لا يلبث ما يعرفه شعب من الشعوب أو فرد من الأفراد أن ينتشر في مشارق الأرض ومغاربها، ويصبح ملكا مشاعا لجميع الناس. وسأتحدث هنا عن ثلاث من هذه الوسائل : وهي الطباعة والتعليم والإذاعة اللاسلكية.

الطباعة والكتب :

والطباعة وسيلة يستطاع بها مضاعفة عدد ما يكتب بعمل صور كثيرة منه. وتستخدم لهذا الغرض حروف معدنية صغيرة تصف بعضها بجوار بعض حتى تتكون منها الكلمات التي يراد طبعها، ثم تغطي هذه الحروف بالحبر وتضغط عليها فروخ من الورق، فتظهر صور الحروف على هذه الأوراق وتكون هذه الصور هي الكلمات المطبوعة، ويطبع منها صورا بقدر ما لدى المطابع من أوراق. وأول بلد في أوروبا استخدمت فيه الطباعة هذه الصورة هو هولندة، وكان ذلك في منتصف القرن الخامس عشر، ثم أدخلها كاكسين (١٤٢٢ – ١٤٩٢) بعدئذ إلى إنجلترا. وأهم من استخدام الحروف في الطباعة صنع الورق الذي تطبع عليه. [وقد صنع الورق أول الأمر في مصر القديمة من

نبات البردي، ولا تزال الأوراق المكتوبة المصنوعة من هذا النبات محفوظة حتى الآن في متحف القاهرة وفي متاحف بعض البلاد الأوروبية].

واستخدم الصينيون الورق قبل ميلاد المسيح بنحو مائتي عام. أما أوروبا فلم تعرفه إلا بعد القرن العاشر من ميلاد المسيح حين جاء به العرب إليها، فلما كثر الورق أصبح في وسع الإنسان أن يطبع العدد الذي يريد، وحلت الكتب محل المخطوطات التي كانت تكتب باليد في العصور الوسطى وتحتاج كتابها إلى جهود شاقة.

وكان لطباعة الكتب نتيجتان هامتان ها الاحتفاظ بالمعارف على مدى العصور ونشرها في مختلف البلاد. ذلك أنك إذا لم تستطع كتابة فكرتك أو قصيدتك تعرضت هذه الفكرة أو القصيدة بعد موتك إلى الفناء ؛ وإذا استطعت أن تكتبها بخط اليد تعرضت أيضا للفناء إذا أكلت الفئران الورقة التي كتبت عليها، وكثيرا ما تلتهم النيران الورق الذي تكتب عليه الأفكار والقصائد. أما بعد اختراع الطباعة فلم يعد يخشى على العلوم والآداب من الضياع ؛ ذلك أنه مهما كان أجل صاحبها قصيرا، ومهما كان عدد النسخ التي تأكلها النيران كثيرة ؛ فإن بقاء

نسخة واحدة يضمن وجود ما كتب عليها طالما أراد الناس بقاءه بتكرار طبعه. ويستطاع فضلا عن هذا نشر الفكرة أو القصيدة في مشارق الأرض ومغاربها ؛ وذلك أنك إذا طبعت منها العدد الكافي كان في وسعك أن تضعها بين يدي مئات وآلاف من بني الإنسان ؛ ولقد أصبح في وسعك الآن أن تبعث بها إلى كل بلد من بلاد العالم. والكتب أهم أداة النقل الحضارة، فبفضلها تخلد الأفكار وتنشر ؛ وفي وسعك أن تقدر أهمية الكتب إذا علمت أن البلاد الشديدة الحرارة تكاد تكون خلوا من الحضارة. ولهذا أسباب عدة ولكن من أهم هذه الأسباب أن النمل الأبيض الذي يعيش في الأقاليم الاستوائية يأكل ما يصل إليها من الكتب. مثال ذلك أنه لا يكاد يوجد في أمريكا الجنوبية الاستوائية كتب يزيد عمرها على أربعين أو خمسين عاما، وحيث لا توجد الكتب لا توجد السجلات، ولا توجد الآداب، ولا يستطيع الجيل الحاضر أن ورث الجيل المقبل علومه وآدابه، وبذلك يصعب على الشعب الذي يعيش في مثل هذا البلد أن رق ويتحضر. على أن من العبث أن توجد الكتب حيث لا يستطيع الناس قراءتها، ولذلك كانت معرفة القراءة جزءا هاما من نظام التعليم.

تعلم القراءة :

لقد يعجب القاري حينما يقال له إن التعلم أداة، ولكنه إذا نظر إليه نظرة فاحصة تبين أنه كذلك، فهو أداة لنقل المعارف والأفكار. وبفضل هذه الأداة يستطيع كل جيل أن يعرف كل ما كشفه الجيل الذي سبقه، فلا يحتاج حينئذ إلى أن يبدأ يكشف ما عرفه هذا الحيل بل يبدأ من حيث وقف من سبقوه، وتكون المعارف كالشملة يتبادلها جيل بعد جيل من أيدي التعليم.

ومن الواضح أن « التحدث » إلى الناس عن كل ما فكر فيه من عاشوا قبلهم أو كشفوه عمل طويل ومُمل، والواجب على من يريد معرفة هذه الأشياء أن يبحث عنها بنفسه، وهو لا يستطيع أن يبحث عنها إلا إذا كان يعرف القراءة، وقد عرف الناس القراءة منذ آلاف السنين، منذ خمسة آلاف على أقل تقدير، ولكن الذين يعرفوها منهم كانوا أقلية صغيرة، وكانت الكثرة الغالبة من الشعب في كل بلد وفي كل عصر – إلا عصرنا الحاضر – تجهل القراءة، وكانت المعارف لذلك يختص بها العدد القليل الذي يعرف القراءة، وكان له بذلك ميزة كبيرة على الذين لا يعرفونها.

ولقد ذكرت في مقدمة الكتاب أن الشعوب في جميع عهود

التاريخ كانت تظلم وتستغل للطبقة الحاكمة القليلة العدد ؛ ولم يكن ذلك مستطاعاً إلا لأن الحكام كانوا يعرفون من الأشياء ما لا يعرفه المحكومون. ولقد كان من أسباب هذه الميزة، ميزة العلم وما تستلزمه من ميزة القوة، أن الحكام يعرفون الكتابة. ولم تميح هذه الفروق الخطيرة بين الحاكمين والمحكومين إلا في الخمسين سنة الأخيرة وفي قليل من البلاد الغربية. وكان معظم أهل إنجلترا من ستين سنة لا يعرفون القراءة، ولم يكن يعرفها وقتئذ إلا نصف من فيها من الأطفال، ولم يسن قانون يلزم الأطفال بتعلم القراءة إلا في عام ١٨٨٠.

الإذاعة اللاسلكية :

اخترعت الإذاعة اللاسلكية منذ خمس عشرة سنة، وبفضلها استطاع الناس الذين يعيشون في البلاد النائية، والذين لا تصل إليهم صحيفة من الصحف، والذين لا يجدون متسعة من الوقت القراءة الكتب، استطاع هؤلاء أن يستمعوا إلى ما يحدث في جميع أنحاء العالم من حوادث هامة ؛ وبذلك أصبح في مقدورهم أن يكونوا على اتصال ما في العالم من معارف وآراء.

لقد كانت الحضارة في العصور الماضية أشبه بسباق يتقدم فيه عدد قليل من المستبقين عن سائر الناس، ولكن كان في وسع

من خلفهم أن يجذبوهم إليهم، ومن أجل ذلك كان الاستباق إلى الحضارة بطيئا على الدوام، و كان يحدث في بعض الأحيان – كما حدث في العصور الوسطى – أن كان المتأخرون يرجعون السابقين كثيرة إلى الوراء حتى لم يكن لهم بد من أن يبدءوا السباق من جديد. أما الآن فالمتأخرون في هذا السياق قليلون، وهم في كل يوم يدفعون إلى الأمام ليلحقوا بالسابقين. ويعود الفضل في رق الشعوب المتأخرة هذا الرق التدريجي إلى مستكشفات العلم، وإلى الكتب و التعليم، والصحف والإذاعة اللاسلكية.

التسامح :

وآخر ما نذكره من الوسائل التي غير بها العلم أحوال الناس وجعلهم أرق مما كانوا حضارة أنه جعلهم أكثر مما كانوا تسامح). والمتسامح هو الشخص الذي لا يتدخل في شئون غيره من الناس ولو كان يعتقد أنهم على خطأ، ولا يرى ضميره في أن يسمح لهم بأن يفكروا كما يشاءون وأن يجهروا ما يفكرون، وإذا ظن أنهم على خطأ فإنه قد يحاول نصحهم و إقناعهم بتغيير معتقداتهم، ولكنه لا يحاول إرغامهم على هذا التغيير بل يدعوهم إليه بالحكمة والموعظة الحسنة.

وقد لا يبدو هذا أمر إذا بال، ولكن كثيرا ما كان في العالم من بؤس وشقاء فيما مضى من الأيام كان منشؤه أن الناس لم يكونوا يرضون بأن يكون لغيرهم من الآراء ما يخالف آراءهم ؛ وأكثر ما كان يحدث هذا في الشئون الدينية، فكان الناس في البلاد الغربية يقتلون ويعدمون من يخالفهم في آرائهم عن الله وعن المسيح والعذراء. ومعظم العقائد الدينية إنما تقوم على الإيمان القلبي. ومن شأن هذه العقائد أنك لا تستطيع أن تقنع بها غيرك مهما بلغ من قوة إيمانك بها، لأنك لا تستطيع أن تثبتها بالدليل القاطع. فأنت إذا اعتقدت مثلا أن في عش طير من الطيور بيضتين، وتريد أن يعتقد غيرك هذا أيضا، فإن في مقدورك أن تمسك بيده وتريه العش بعينه ؛ ولكنك إذا أردت أن تقنع إنسانا بأنه سيدخل الجنة بعد موته فليس في وسعك أن تأخذه بيده و تريه الجنة، وأنت لذلك لا تستطيع أن تقنعه بأنك محق في اعتقادك، رغم أنك قد تكون على حق فيه. ولقد أصبح الناس أكثر مما كانوا تسامحا في هذا النوع من العقائد التي لا يوجد دليل حسى يثبتها، والتي قد تكون مخطئا فيها رغم اعتقادك بصحتها. وكان يحدث في الماضي أن الإنسان إذا كان يعتقد في أمر من الأمور غير ما يعتقده جيرانه تعرض لخطر القتل أو الحرق حيا. و إذا لم يكن يؤمن بالله، ولم يكن له دين، فقد كان الناس يظنونه

شريرا وكانوا يعاقبونه أشد العقاب. ولكن هذا لا يحدث الآن، فنحن الآن نسمح للناس بأن يفكروا ويعتقدوا كما يشاءون. وهذا التسامح شيء جديد في العالم، وهو من أهم مظاهر المدنية الحاضرة. وقد نشأ تدريجا وبعد جهاد عنيف. ولم يكن يقصد بهذا الجهاد أن يكون الناس أحرارة في تفكيرهم، بل كان يقصد به في الغالب أن يكونوا أحرارا في التعبير عن أفكارهم، لأن أحدا لا يستطيع أن منع إنسانا من أن يفكر كما يشاء. وقد وصل الناس إلى هذا تدريج). فقد حدث منذ نحو مائتين عاما أن أخرج من إنجلترا كاتب ذائع الصيت بدلى تومس پين Thomas Paine (١٧٣٧ -١٨٠٩) لأنه ألف كتابا يسمى عصر العقل The Age of Reason قال فيه إن ما في التوراة قد لا يكون كله صحيحا ؛ وحكم على نشر الكتاب بالسجن ثمانية عشر شهرا. ويتعرض الناس في أمريكا والروسيا في هذه الأيام إلى السجن إذا طعنوا في الحكومة القائمة وحاولوا تحريض الناس على تغييرها و استبدال حكومة أخرى بها.

الفصل السادس

اقتسام المال

لقد ذكرت من قبل شيئا عن الأمن والنظام، وقلت إنه لا غنى للعالم عنهما إذا أريد أن تقوم فيه الحضارة. والأمن والنظام لا يوجدان إلا حيث توجد القوانين العادلة التي تنظم علاقة الناس بعضهم ببعض، والتي يطبقها الناس ويحافظون عليها، ولكن هناك نوع آخر من العدالة يسمى العدالة الاقتصادية تتصل بتوزيع مال الأمة وخيراتها بين الأفراد. فالأمن والنظام كما قلنا ضروريان لقيام الحضارة، ولكنهما وحدها لا يكفيان لقيامها. وأي فائدة في أن يكون المرء آمنا على ثروته إذا لم يكن له ثروة يأمن عليها. والحرية أيضا ضرورية لقيام الحضارة، ولكن الحرية نفسها تصبح عديمة النفع إن لم تتوفر لدى الإنسان وسائل العيش، ووسائل العيش هي الطعام والكساء والوقاء، وهي في البلاد المتحضرة المال الذي نشتري به هذه الوسائل. فإن لم يكن لديك مال مطلقا، أو لم يكن لديك منه إلا القليل، وكان عليك أن تكد وتكدح للحصول عليه، فإن العدالة السيأسيا تصبح

عديمة النفع لك أو قليلته، لأنك في هذه الحال لا يكون لديك من الفراغ ما يمكنك من أن تمتع فيه نفسك، أو من الطيبات ما تستطيع أن تتمتع به.

الثورات :

يتمتع كثير من الأقطار بقسط وافر من الحرية السيأسيا وبخاصة الأقطار التي تقوم فيها حكومات ديمقراطية، ولكن العدالة الاقتصادية لا توجد إلا في القليل من البلاد. والمجتمع العادل من الناحية الاقتصادية هو المجتمع الذي يضمن فيه كل من يريد العمل أن يحصل على قدر معقول من المال، كما أن المجتمع العادل من الوجهة السيأسيا هو الذي يكون كل فرد من أفراده آمنا لا يخشى فيه الاعتداء على نفسه أو على ماله. ولكن نظرة في تاريخ العالم تظهر لنا بوضوح أن أكثر الناس عملا كانوا على الدوام أشدهم فقرة، وأن الأغنياء فيه هم الذين لا يعملون مطلقا أولا يعملون إلا قليلا. والعدالة السيأسيا والاقتصادية شديدة الصلة إحداها بالأخرى، فإن كانت لك أنت وأصدقائك وحدكما جميع السلطة في الحكومة استطعت أن تسن من القوانين ما تشاء، وألا تسن إلا القوانين التي تفيدك أنت وأصدقاءك، وهي التي تهيئ لكم أسباب الثروة وتحفظها لكم، وتجعل غير كم

من الناس فقراء، وذلك ظل بلا مراء. وقد بلغ هذا الظلم في بعض الأحيان حدة حمل الناس على أن يثوروا على هذه القوانين و يطالبوا بتوزيع ثروة الأمة على أساس عادل. وكانت الثورة الفرنسية التي قامت في أواخر القرن الثامن عشر والثورة الروسية التي قامت عام ١٩١٧ ترميان إلى هذا الغرض.

كيف توزع الثروة الآن ؟:

العدالة الاجتماعية لم تحقق إلا قليلا على الرغم من هاتين الثورتين وأمثالها، ولا تزال الكثرة الغالبة من الناس في أقطار العالم في فقر مدقع، في حين أن أقلية ضئيلة تتمتع بمعظم الثروة ؛ ومع أن حضارة هذه الأيام قد استطاعت بفضل المخترعات العالمية أن تمنح الموسرين ما لم يكونوا يستمتعون به من وسائل الراحة والنعيم، فإن كثيرا من الناس لا يزالون حتى اليوم عاجزين عن أن يجدوا كفايتهم من الطعام والكساء.

ولعل من أغرب الأشياء في حضارة اليوم أن أفقر الناس هم الذين يقومون بأشق الأعمال وأثقلها على النفس وأشدها خطراً على الحياة. ومن هذه الأعمال الخطرة ما يقوم به العمال في مناجم الفحم في جوف الأرض، حيث يتعرضون للهلاك، ومنها أيضا ما يقوم به العمال الذين يقضون حياتهم في المصانع

الشديدة الحرارة يطرقون الحديد المصهور ويشكلونه بأشكال مختلفة. ومن الأعمال الثقيلة المملة عمل الخدم الذين يقومون بالا عمال القذرة في المنازل ؛ ومع هذا فان عمال الفحم والمعدنين والخدم لا يتقاضون على عملهم هذا إلا أجوراً قليلة إذا قيست بأجور من يعملون أعمالا مريحة سارة كتنظيم الأعمال وتصريفها والإشراف على غيرهم من الناس، فهؤلاء يتقاضون أعلى الأجور، وأولئك لا يكادون يجدون إلا الكفاف من العيش.

فما السبب في هذا ؟ إن الجواب عن هذا السؤال معقد محير لم يجمع عليه الناس بعد. على أني سأحاول أن أقول شيئا عنه لأن أحدا لا يشك في أننا لن تكون لنا حضارة شاملة كاملة طالما كان الجزاء الذي يناله الناس عن أعمالهم مختلفة هذا الاختلاف الشديد. لقد ذكرت في الفصل الخامس من هذا الكتاب كيف استطاع الناس باستخدام الآلات أن ينتجوا من السلع أكثر مما كانوا ينتجون في الأيام الماضية. وقد استطاعت الآلات أن تصنع من أنواع السلع المختلفة التي يحتاجها الناس في أيامنا هذه أكثر مما كان يوجد منها في العالم من قبل ؛ وقد كان خليقا بهذه الزيادة في السلع أن يستفيد منها الناس جميع، فتزيد من رفاهية الأفراد وتمكنهم من أن يحصلوا على كل ما يحتاجون إليه. نعم إن عامة

الشعب في البلاد المتحضرة يحيون حياة أرق من حياتهم السابقة قبل أن تستخدم الآلات في الإنتاج، ولكن هذا التحسن في مستوى حياتهم لم يصل إلى المستوى الذي كان من الواجب أن يصل إليه، فأين إذن تذهب هذه الثروة الجديدة التي جاءت بها الآلات ؟ لقد ذهب معظمها إلى جيوب عدد قليل جدا من الأفراد، وأصبح الأغنياء أكثر غنى مما كانوا، وزاد عددهم على ما كان عليه في الماضي، وزاد عدد من لا يؤدون عملا قط. ومعنى هذا أن ما جاء به العلم من طيبات للموزع في العالم توزيع عادلا بحيث ينال كل فرد نصيبه منه، بل قام المرابون والمجازفون يتنازعونه ويختطفونه ويغتصبونه. يضاف إلى هذا أن جزء كبيرة من الثروة يبدد فيما لا يفيد، في إشعال نار الحرب وفي صنع المدافع والسفن المدرعة والديانات التي تستخدم في التخريب والتدمير.

لماذا لم تتحسن أحوال الناس جميعاً ؟

وكما أن الناس بوجه عام لم تزد ثروتهم بعد استخدام الآلات في الصناعة، فكذلك لم يصبح عملهم أهون مما كان عليه قبل استخدامها، أو على الأقل لم يبلغ من اليسر والراحة ما يجب أن يكون. فلقد كانت ساعات العمل طويلة وظروفه شاقة خطرة في أثناء الانقلاب الصناعي الذي حدث في أواخر القرن

الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر، حين بدأ استخدام الآلات في الصناعة. فقد كان الصناع وقتئذ يعملون نحو اثنتي عشرة أو خمس عشرة ساعة، في مناجم ومصانع قليلة الضوء فاسدة الهواء، وكان يعمل فيها الرجال والنساء والأطفال الصغار، فكان هؤلاء يحشدون في المصانع ومناسج القطن في الرابعة أو الخامسة من عمرهم، ويعملون فيها عملا متواصلا حتى يعلم النوم. ولكن الناس على الرغم من هذا كله كانوا لفقرهم يلدون وأكثر ما يستطيعون من الأبناء لكي يستطيعوا بالأجر القليل الذي يناله أطفالهم أن يجدوا من العيش ما يقيم أودهم.

فلم هذا كله ؟ لنفرض أن لديك كمية كبيرة وجاءك الناس يرجونك أن تعطيهم شيئا منها، وكانوا جياعا لا يجدون ما يسد رمقهم. إنهم في هذه الحال يقبلون أن يقوموا بأي عمل تطلب إليهم أن يقوموا به ليحصلوا على جزء قليل من كعكتك ؛ فإن كنت تريد أن تحصل على أقصى ما تستطيع الحصول عليه نظير كعكتك فإنك تحتم على من يطلب إليك جزء منها أن يعمل في دارك ما دمت راغبا في عمله. فإن لم يقبل ما تعرضه عليه من الشروط رددته من غير أن تعطيه شيئا، لأنك واثق من أن كثيرين غيره يرغبون في العمل لديك ليحصلوا على قطعة صغيرة من

كعكتك ؛ فأنت في هذه الحال في وضع ممتاز تستطيع أن تستخدمه لزيادة ثروتك وسلطانك على الناس. فإذا وضعت في المثل السابق لفظ الآلة مكان لفظ الكعكة، فهمت أسباب ما تشاهده في حضارة اليوم من تفاوت عظم في الثروة. لقد كانت الآلات من بداية الأمر ملكا لعدد قليل من الناس، وتصادف أن كان هؤلاء هم الذين لديهم من المال ما يكفي لشراء الآلات، ومن بعد النظر ما مكنهم من أن يعرفوا ما سوف يحصلون عليه من الثروة باستخدام هذا الاختراع الجديد، ولم يكن في وسع الكثرة الغالية من الناس إلا أن تعمل عند أصحاب الآلات. ولا ننكر بطبيعة الحال أن أحدا لم يرغمهم على العمل، وأنه كان من حقهم أن يعملوا أولا يعملوا إذا شاءوا، ولكن العمل كان هو الوسيلة الوحيدة التي تحفظ لهم حياتهم، ومن أجل ذلك لم يكن في وسعهم إلا أن يقبلوا الشروط التي يعرضها عليهم أصحاب الآلات، وكانت هذه الشروط في العادة قأسيا، ولذلك لم ينل العمال إلا قدر ضئيلا من الثروة التي تنتجها الآلات، ثم يذهب معظم هذه الثروة إلى أصحاب الآلات أنفسهم.

الثورة الروسية :

وقد بدأ الناس في هذه الأيام يسخطون على هذه الحال، وأخذ هذا السخط ينتشر ويزداد. وكان من أغراض الثورة الروسية التي شبت في عام ١٩١٧ أن يتخلص الشعب من حكامه الأغنياء، وأن يقسم مالهم وعقارهم بين عامة الشعب تقسما أدني إلى العدالة ؛ وكان القائمون بهذه الثورة يرون أنه ليس من حق أحد أن يحصل على المال إلا إذا كان ذلك بعمله، وأن الذين يعملون بأيديهم لا يقلون شأنا عن الذين يجلسون في المكاتب ويعملون بعقولهم. ومع أن هؤلاء الثوار أفلحوا في التخلص من الطبقة الحاكمة المحظوظة، وأن يستولوا على أزمة الحكم، وأن يغيروا كثيراً من نظام توزيع المال والأرض القديم، فإنهم لم ينجحوا بعد في إقامة النظام الاجتماعي الذي كانوا يهدفون إليه، فلا زال معظم الشعب فقيرة، ولا تزال أشد القيود مفروضة على حرية القول والفكر، والحضارة الحقة لا تكون حيث لا تكون الحرية ومهما كان ما يحدث في الروسيا فإن أمرا واحدة لا شك فيه وهو أنه لا يمكن أن تقوم في العالم حضارة صالحة باقية حتى يوزع ما في العالم من ثروة توزيعاً أكثر انطباقا على العدالة من توزيعها في الوقت الحاضر. ذلك أنك لا تستطيع

أن تكون إنسانا متحضرة إن لم يكن لديك مال تعيش منه، وإن لم تحصل على قسط كاف من التعليم، وإن لم يكن لديك فراغ وحرية ؛ وهذه الأشياء كلها – المال والتعليم والفراغ الذي يأتي به المال – كانت ممتنعة على الكثرة من الناس في جميع عصور التاريخ، ولا يزال التعليم الراقي في هذه الأيام حتى في أكثر البلاد حضارة ميزة الأغنياء.

في إنجلترا نفسها حيث يحصل كل إنسان على قسط من التعليم نجد أن تعليم الفقراء ينتهي في سن الرابعة عشرة، في حين أن أبناء الأغنياء يستمر تعليمهم إلى سن التاسعة عشرة أو العشرين، وهكذا كانت الحضارات المتعددة التي قامت في الماضي حضارات لم تشمل إلا عدد قليلا من الناس، وكانت الكثرة المالية مهم متأخرة كثيرة عن مستوى هذا العدد القليل، وهذا هو أهم الأسباب التي جعلت الحضارات الكثيرة التي قامت في العالم حتى الآن حضارات قصيرة الأجل.

الفصل السابع

حضارتنا

يوم من حياة رجل عادي :

إن خير طريقة لفهم حضارتنا أن نعرض على القاري كيف يصرف رجل من أوساط الناس يوما من الأيام العادية في حياته. ولأكن أنا هذا الرجل. فأنا أستيقظ من النوم في الصباح على دقات ساعة منبهة موضوعة على المنضدة في حجرة نومي، وهي آلة معقدة التركيب إلى حد كبير، وأذهب بعد النوم إلى حمام ساخن دفأ ماءه الغاز الذي يصل إلى منزلي كما يصله الماء على يد طائفة من الناس أنابهم أهل الإقليم الذي نعيش فيه عنهم. ويسمى هؤلاء بالسلطة المحلية، وربما كان الذين يقومون بهذا العمل نائبين عن عدد كبير من الناس يؤلفون شركة لاستثمار أموالهم بإيصال الماء و الغاز إلى المنازل. وبعد أن أستحم أحلق لحيتي، وأستخدم لهذا ماء في إبريق سخن بالكهرباء، ولم يكلفني تسخينه إلا عملا يسيرا. وأستعمل في حلاقة لحيتي شفرة رقيقة من الصلب صنعت هي وآلاف الآلات من أمثالها في مصنع بأمريكا. والملابس التي ألبسها قد عزلتها ونسجتها آلات تدار

بالبخار أو الكهرباء. وأفطر في حجرة تدفأ بالغاز أو الكهرباء، وأطالع وأنا أفطر في إحدى صحف الصباح على كل ما حدث في أنحاء العالم، وقد جاءت هذه الأنباء إلى مكتب هذه الصحيفة بالتلغراف والتليفون السلكي واللاسلكي، وطبعت الصحيفة آلات قوية معقدة التركيب تدار هي أيضا بالكهرباء.

وبعد أن أفطر أخرج من دارى و أذهب إلى محطة الترام وأركبه إلى محل عملي، وقد أركب سيارة عامة تسيرها آلة تتحرك بغاز مكون من البترول والهواء. وإذا كنت أسكن في بلد مثل لندن أو نيويورك فإني إذا أردت الانتقال من داري إلى مكان عملي أذهب إلى أقرب محطة إلى منزلى، وأركب في مصعد يدار بالكهرباء ينزل إلى عمق كبير في باطن الأرض، ومن هنا أستقل قطارا يسير بالكهرباء التي تصل إليه من محطة كهربائية تبعد عنه عدة أميال. فإذا وصلت إلى أقرب محطة لمكتبي نزلت من القطار الكهربائي وصعدت إلى ظهر الأرض في مصعد كهربائي، وركبت سيارة عامة إلى مكتبي. وفي هذا المكتب أملي رسائلي على كاتب يكتبها، لا بالحروف التي أنطق بها، بل بطريقة سريعة تعرف بطريقة الاختزال، ثم يذهب الكاتب إلى مكتبه ويكتبها بآلة أخرى تسمى بالآلة الكاتبة، ثم أرسل برقيات إلى أشخاص بعيدين عنى

مئات الأميال، وأتحدث إلى غيرهم بالتليفون، وترسل البرقيات في صورة إشارات كهربائية تنقلها أسلاك. وإذا تحدثت في التليفون انتقال صوتي على طائفة أخرى من الأسلاك بعضها تحت ماء البحر وبعضها معلق فوق الأرض.

لم أذكر هنا إلا قليلا من الحوادث التي تقع لرجل عادي، ولكن في وسع القاري أن يرى منها كيف يعتمد هذا الرجل على الآلات في أعماله وفي انتقاله وفي وسائل تسليته ؛ فإذا أراد أن يعمل شيئا، أو رى شيئا، أو يسمع شيئا، أو يذهب إلى مكان ما، لجأ إلى الآلات لتعينه على ذلك كله ؛ وهذه الآلات تسيرها القوة، قوة البخار أو الكهرباء أو البترول أو غيرها من القوى التي استمدها الإنسان من الطبيعة.

الآلات أيد وأرجل إضافية :

وقد يبدو لأول وهلة أن الخلائق الذين يستعينون في معظم أعمالهم بالآلات خاملون كسالى، لأن كل ما تعمله الآلات هو أن تريح الإنسان من متاعب العمل، فهي أعضاء للإنسان في خارج جسمه أخذها لتعمل له عمله، فالمطارق والروافع أند إضافية يستخدمها في الطرق والرفع، والقطر والسيارات أرجل من هذا النوع يستخدمها في السير والجري، وآلات الكتابة

والطباعة عقول إضافية تريحه من عناء تذكر ما لا يستطيع أن يتذكره. ولم يكتف الإنسان باستخدام هذه الآلات بدل أعضاء جسمه، بل إنه استحدث لنفسه أعضاء لم تكن له، فاخترع الطائرات لتكون له أجنحة كأجنحة الطير، على أنه يصعب علينا أن نظن أن الإنسان يجهد نفسه في اختراع هذه الآلات المعقدة لأنه كسول، وأنه يتعب نفسه هذا التعب ليستريح من التعب كلا ليس الإنسان كسولا، بل هو أنشط المخلوقات وأكثرها جدا.

فلم إذن كان الإنسان وحده دون سائر المخلوقات هو الذي يجهد نفسه المخترع هذه الآلات ليرح نفسه من عناء رفع الأشياء وحملها، ومن عناء المشي والتذكر ؟ يبدو أن الجواب الوحيد عن هذا السؤال هو أن هذه الأعمال تضايقه، إذ ليست هي ما يريد أن يعمله، ومن أجل ذلك يستخدم الآلات في عمله لكي يجد متسما من الوقت ينتفع به في غير تلك الأعمال، أي في الأعمال التي يريد بحق أن يعملها. فما هي هذه الأعمال يا ترى ؟

ليس في وسعي أن أجيب عن هذا السؤال إلا إذا تحدثت أولا عن مساوئ حضارتنا. على أنه ليس من العدل أن نلوم حضارتنا ونذكر مساوئها قبل أن نثني عليها ونذكر محاسنها. فما هي هذه المحاسن؟

محاسن حضارتنا

النظام والأمن :

أول هذه المحاسن وأهمها ما نتمتع به من نظام وأمن. فإذا تنازعت اليوم مع إنسان فإني لا أضرب وأهان لغير سبب، إلا لأني أضعف منه جسمها، ولأن في وسعه أن يلقيني على الأرض، بل إني في هذه الحال أستعين بالقانون، والقانون يفصل بيني وبين خصمي بأقرب ما يستطيع إلى العدالة، ومعنى هذا أن الحق قد حل محل القوة فيما يشجر بين الناس من خلاف، والقانون فضلا عن هذا يحميني من السرقة والاعتداء، فليس يستطيع أحد أن يسطو على بيتي، ويسرق متاعي، ويختطف أطفالي. لسنا ننكر أنه لا يزال في البلاد المتحضرة لصوص، ولكنهم قليلون والقانون يعاقبهم كلما أمسك هم. وليس من السهل أن ندرك أهمية هذا وأثره في حياتنا. فبغير الأمن يتعذر وجود هذا النشاط الراقي الذي تقوم عليه الحضارة، وبغيره لا يستطيع المخترع أن يخترع، ولا يستطيع العالم أن يكشف، والفنان أن يبدع. وإذن فالنظام والأمن شرطان أساسيان لقيام الحضارة، وإن لم يكونا ها الحضارة نفسها، وهما لأزمان لها لزوم الهواء للإنسان ؛ وقد تعودناهما حتى

أصبحنا لا تحس هما إلا بقدر ما تحس بالهواء الذي يحيط بنا، ولكنهما مع هذا من الأشياء الجديدة النادرة الوجود في هذا العالم.

وشاهد ذلك أن الأمن والنظام لم يستقرا في أوروبا إلا في المائة عاما الأخيرة، إذا استثنينا فترة قصيرة من حكم الدولة الرومانية ؛ وحتى في المائة عام التي ساد فيها الأمن والنظام ربوع أوروبا شبت فيها ثورتان كبيرتان، واتقدت نيران كثيرة من الحروب ؛ ومن هذا يتبين لنا أن اطمئنان الناس في حياتهم اليومية العادية ونعموا بقدر كبير من الأمن، وهذا من أعظم ما وفقت إليه حضارتنا المعاصرة.

الصحة:

والناس في هذه الأيام آمنون إلى حد كبير من خوف الألم. نعم إنهم يمرضون ولكن المرض بعد كشف التخدير لم يعد له في قلوب الناس ما كان له من رهبة في الحقب الماضية. والناس الآن أقل تعرضا للمرض مما كانوا في سابق الأزمان. ولسنا نقول إن الصحة في حد ذاتها هي الحضارة، فكثير من المتوحشين أصحاء الأجسام وإن لم يكن الأصحاء مهم بالكثرة التي يظنها الناس عادة. ولكنك إذا لم تكن صحيح الجسم لم تستطع أن تعمل

عملا نافعا أو تتمتع بطيبات الحياة. نعم إن المرضى كان منهم بعض العظماء، ولكن ما قام به هؤلاء المرضى من جلائل الأعمال إنما قاموا به على الرغم من مرضهم ؛ ولو أنهم كانوا أصحاء لكان عملهم هذا أعظم وأكثر نفعا. ورجال هذا العصر ونساؤها ليسوا أصح أجساما من أسلافهم فحسب، بل هم أطول منهم أعمارا وأكبر أملا في أن يعيشوا حتى يكتمل نموهم ويصبحوا رجالا نافعين ونساء نافعات.

الحضارة تنتشر في كل مكان :

حضارة هذه الأيام أكثر ثباتا واستقرار من الحضارات السابقة، وذلك لأنها أوسع منها انتشارا. ولقد اندثرت أكثر الحضارات التي عرفها التاريخ لأن شعوبا قوية غير متحضرة أغارت عليها ودمرها. هذا ما أصاب بابل وأشور، وما حدث أكثر من مرة في مصر والهند والصين، وهذا ما قضي على حضارة اليونان والرومان، وهذا ما أصاب حضارة العرب. ومهما تكن الأخطار التي تهدد حضارة هذه الأيام، وهي أخطار لاشك كثيرة، فأكبر الظن أنها ستنجو من هذا الخطر الذي قضى على الحضارات السابقة.

لقد كانت الحضارات القديمة حضارات خاصة قائمة في

رقعة من الأرض محدودة، وكانت كما قلت من قبل أشبه بواحات تحيط بها صحراوات من الهمجية , وكثيرا ما كان يحدث أن تطبق الصحراء على الواحة بعد فترة من الزمن قصيرة أو طويلة، فتقضي عليها أو نحوها من الوجود. أما اليوم فالواحة هي التي تسع وتمتد في الصحراء ؛ فحضارة هذه الأيام تسود أوروبا وأمريكا وأصقاعا واسعة من أسيا وأفريقيا، ولا يكاد يوجد إقليم على ظهر الأرض لم يأخذ منها بنصيب؛ وقد سلحها العلم بقوى للتدمير عظيمة يتعذر معها على الشعوب الهمجية الباقية في بعض نواحي العالم أن تغلبها وتدمرها.

العالم وحدة :

وهكذا أتيحت للعالم لأول مرة فرصة مواتية،لأن يصبح وحدة مرتبطة الأجزاء، بل إنه قد أصبح بالفعل وحدة مرتبطة من حيث البيع والشراء وتبادل السلع. ولو أني ذكرت شيئا عن طعامى حين كنت أصف يوما من أيام حياتي، لذكرت فما ذكرت أن طعامى يأتيني من جميع أنحاء العالم؛ فالأشياء التي أبتاعها من البدال والفاكهي تأتي من أطراف الأرض، فهذا تفاح من أمريكا، وبن من البرازيل، وشاى من الهند والصين ؛ ولم يكن في وسع ملك من الملوك الأقدمين أن يبتاع ماله الكثير ما تبتاعه سيدة

متوسطة الثروة في هذه الأيام من حانوت البدال. وإن مجرد وصول هذه الأشياء من كافة أنحاء العالم ليدل في حد ذاته على أن العالم قد أصبح كله مكانا واحدة، بعد أن كان أماكن متفرقة لا رابطة بينها، ومنفصلة بعضها عن بعض. ولقد كانت أمر الأرض إلى عهد قريب تعيش في صناديق مقفلة لا يتصل بعضها ببعض إلا إذا أغارت إحداها على الأخرى. وقد ظلت هذه الصناديق زمنا طويلا مقفلة لم تفتح قط، ولكن الأمم في هذه الأيام دائبة على الخروج منها والدخول فيها، وقد بلغ من كثرة هذا الدخول والخروج أن أخذ بعض جوانبها يتحطم، وأخذ المال يبدو كأنه صندوق واحد ضخم. ولقد تفتحت كل الصناديق فلم يعد يخشى أن تقوم أمة غير معروفة تغير على حضارتنا القائمة من خارجها وتدمرها، بل الخطر الذي يخشى منه هو الذي يأتيها من داخلها، أي منا نحن المتحضرين ؛ وهذا ينتقل إلى النقطة التالية وهي عيوبنا.

عيوب حضارتنا

لا يوجد اليوم في العالم المتمدن اضطهاد سياسي إلا في القليل من البلاد، وقد أصبح الناس متساوين أمام القانون، وصار لهم في كثير من البلاد صوت مسموع في نظام الحكم الذي يخضعون له، وفي اختيار من يريدون أن يحكموهم. ولكن توزيع المال – أي توزيع الطعام والكساء والكتب وما إليها – لا يزال ينطوي على كثير من الظلم. فالجزء الأكبر من الثروة التي تحصل عليها الأمة في كل عام يذهب إلى جيوب أقلية ضئيلة من الأفراد، في حين أن الكثرة الغالبة لا تحصل منه إلا على القليل الذي لا يغني. وهذا يحدث في كل بلد تقريبا. يضاف إلى هذا أن كثيرا من السكان يعيشون في أسوأ الظروف، فأسر بأكملها تتألف من خمسة أفراد أو ستة يعيشون في حجرة واحدة ينامون فيها ويلبسون، ويغتسلون ويأكلون، في هذه الحجرة ولدوا وفيها يموتون. وهم لا يسكنون فيها لمجرد الرغبة في سكناها، بل لفقرهم لا يستطيعون أن يسكنوا في أكثر منها.

وما من شك في أن حضارتنا ستبقى بعيدة كل البعد عن

الكمال إلى أن ينال كل إنسان قسطه العادل من ضروريات الحياة ومتعها.

خطر الحرب :

والحرب أشد من هذا خطر ؛ ذلك أن الحواجز لا تزال تفصل الأمر بعضها عن بعض، وهي حواجز أقامتها الحكومات على الرغم من أن العالم أصبح وحدة متماسكة الأجزاء في شئون البيع والشراء وتبادل السلع. وقد شهد هذا الجيل حربين كبيرتين دامت أولاهما من عام ١٩١٤ إلى عام ١٩١٨؛ وكانت حرباً عواناً قضت على حياة ملايين من بني الإنسان، ودمرت كثيرا من المنشآت، وأحرقت أرزاق الناس وبددت ثروتهم. وكانت أسبابها كثيرة مختلفة، ولكن أهمها كلها الخوف والكبرياء. فقد كانت كل أمة تخشى قوة غيرها من الأمم، ويعز عليها لكبريائها أن تعترف بهذه الخشية، وكانت الأمم بسبب هذا الخوف تنفق الأموال الطائلة في صنع البنادق والمدافع والمدمرات والطائرات وما إليها من أدوات القتل والتدمير، وعلى تدريب الجنود، حتى أصبحت أوروبا كلها أشبه بمعسكر واحد ضخم، أو مستودع بارود تكفي شرارة واحدة لإشعاله. وكانت الدول الأوروبية المختلفة تترقب طول الوقت أن يتطاير الشرر فيشعل هذا المستودع. وقد حدث

أن تطاير الشرر من ناحية ما، فانفجر هذا المستودع الهائل، واشتعلت نار الحرب العالمية الأولى. وعلى الرغم من الخراب والدمار الذي حل بالعالم من جراء تلك الحرب العوان، فقد ظلت الدول تدرب الجند وتصنع معدات القتال، وتنفق الأموال الطائلة على الاستعداد للحرب، ويفاخر بعضها بعضا بالقدرة على التقتيل والتدمير، وتعتقد كل منها أنها ستخرج من الحرب التالية ظافرة.

[وظلت هذه الحال حتى اشتعلت نار الحرب الثانية التي دامت نحو ست سنوات، ذاقت أمم العالم جميعها من جرائمها الأمرين، وارتكبت فيها من الفظائع ما تقشعر لهوله الأبدان. وأكثر ما يؤلم الإنسان أن هذه الأموال نفسها لم تكف – كما يبدو – لتغيير عقلية سياسة الأمم ورجال الحكم، إذ يلوح لنا أنهم سيظلون يسلكون نفس الطريق الذي أدى بهم إلى الحرب الأخيرة والحرب التي قبلها.

وسأذكر هنا حادثة صغيرة لكنها عظيمة الدلالة على عقلية رجال الحكم في هذه الأيام أو في الأيام القريبة الماضية. فقد زار لندن من عهد قريب ملك من ملوك الشرق تربطه بانجلترا روابط الصداقة، وهو أمان الله ملك الأفغان. وأعد برنامج لزيارة هذا

الملك، وكان أهم ما ينطوي عليه زيارة مصانع الدبابات والطائرات قاذفات القنابل والغواصات. وسمح له بأن يطلق طربيداً في إحدى الموانى البريطانية، ولكن أحدا لم يفكر في أن يزور هذا الملك شاعر إنجليزياً كبيراً، أو مصوراً أو موسيقياً أو مخترعاً عظيماً، أو عالماً أو فيلسوفاً. وسيقرأ أهل الأفنان بعد ثلاثمائة عام من ذلك الوقت أخبار هذه الزيارة في كتب التاريخ، فيظنون أن الإنجليز أمة محبة للحرب، لا تعنى بشئون السلم ؛ ويرون أن حضارتها أقل من أن يطلع عليها من يزور بلادها. والحق أن الإنجليز أشد إعجاباً وفخراً بمدرعاتهم منهم بشعرائهم، وأنهم ينفقون من الأموال على التدمير والتقتيل أكثر مما ينفقون على إسعاد الناس وتثقيف عقولهم في السلم. وما يصدق على الإنجليز يصدق على غيرهم من الشعوب. وإذا ظلت الأمم سائرة في هذا الطريق فلن يحتاج الأمر إلى أكثر من شرارة أخرى لإيقاد نار الحرب من جديد. وستكون هذه بفضل المخترعات العالمية الحديثة حربا مخربة تحترق بها حضارتنا ولا يبقى لها وجود.

وقد أقامت الأمم بعد الحرب العالمية التي وضعت أوزارها في عام ١٩١٨ هيئة عالمية لمنع الحروب، وسميت هذه الهيئة عصبة الأمم. وكانت أشبه بمحكمة تعرض عليها الأمم منازعاتها لتفصل

فيها كما يعرض الأفراد منازعاتهم على المحاكم العادية، ولكن هذه الهيئة لم تنجح كل النجاح، وإن كانت قد سوت بعض الخصومات التي قامت بين بعض الأمم. وكان من أكبر أسباب إخفاقها افتقارها إلى القوة التي ترغم بها الأمم على قبول حكمها، كما كان من أسباب هذا الإخفاق تغلب نزعة الأثرة على رجال الحكم من الأمم المختلفة. (وتحاول الأمر بعد الحرب الأخيرة أن تنشي هيئة أخرى أقوى من عصبة الأم وأقدر منها على إقرار السلم ومنع الحروب، وهي تفكر في أن تضع تحت تصرفها قوة حربية برية وجوية وبحرية تستخدمها إذا دعت الحال لمنع الاعتداء ومعاقبة المعتدين. وهذه الهيئة الجديدة هي التي يرجى أن تقضى على الحروب في المستقبل، وهم يسمونها « هيئة الأمم المتحدة »]

خطر الآلات :

والعيب الثالث من عيوب حضارتنا، إنها لا تعرف ماذا تفعل بعلمها، ذلك أن العلم كما رأينا قد أمدنا بقوى هائلة، ولكننا نعبث هذه القوى عبث الأطفال.

فنحن لا نعرف مثلا كيف نشرف على آلاتنا، فقد وجدت الآلات في أول الأمر لتكون لخدمة الإنسان كما قلت من قبل،

ولكن الإنسان أصبح يعتمد على هذه الآلات اعتمادا سيؤدي حتما، إن لم يكن قد أدى بالفعل، إلى أن تكون لها السيادة عليه. والآلة سيد صلب عنيد، فهي تحتاج إلى أن تطعم بالوقود، وتشرب البترول، وتستحم بالزيت، وأن تبقى في درجة من الحرارة لا تزيد؛ فإذا لم تطعم وقت حاجتها إلى الطعام تكاسلت وامتنعت عن العمل أو انفجرت من الغيظ وأشاعت الخراب والدمار في كل ما حولها. ومن أجل هذا كان علينا أن نقوم على خدمتها متيقظين غاية اليقظة، وأن نبذل كل ما في وسعنا لاسترضائها. وإنا ليصعب علينا في هذه الأيام أن تعمل أو نلعب بغير الآلات، وقد يحل الوقت الذي يكون لها فيه من السيطرة الكاملة علينا مثل مالنا نحن على الحيون الأعجم.

ماذا يجب أن نعمل بوقتنا؟

وهذا يعود بي إلى النقط التي سألت عندها « ماذا نفعل بالوقت الذي وفرته لنا الآلات، و بالجهود الجديدة التي أضافتها إلى جهودنا ؟ » ولبس في وسعنا إلا أن نقر بأننا لا نستفيد من هذا الوقت ومن تلك الجهود فائدة تذكر.

إننا ننفق معظم وقتنا وجهودنا في صنع آلات أكثر مما لدينا وأحسن منها، ولكن كل ما تفعله الآلات الحسنة الجديدة هي أن

توفر لنا وقتا جديدة، وتمدنا بجهود جديدة. وماذا نفعل آخر الأمر بهذا الوقت و بتلك الجهود؟ أظن أن جواب هذا السؤال هو أننا يجب أن نعمل على أن نكون أكثر حضارة مما نحن الآن. ذلك أن الآلات نفسها والقوى التي أمدتنا بها ليست هي الحضارة، بل هي عون على الحضارة، وإنما الحضارة إذا ذكر القارئ ما اتفقنا عليه، في صنع الأشياء الجميلة وحبها، وفي حرية التفكير؛ وفي الحياة الصالحة، وفي توزيع العدالة بالتساوي بين الناس.. والفرصة متاحة للإنسان في هذه الأيام لأن يفعل هذا كله أكثر مما كانت متاحة له في الماضي، ذلك أن لديه من الوقت ومن الجهد أكثر مما كان له في سابق الأيام، وهو أقل مما كان خوفا وأقل أعداء. فإذا ما أنفق ذاك الوقت والجهد اللذين أمدته بهما الآلات لصنع الأشياء الجميلة، ولزيادة علمه بالكون الذي يعيش فيه، ولإزالة أسباب الشحناء والنزاع بين الأمم، ومعرفة الوسائل التي يعالج بها الفقر ومنع أسبابه، إذا فعل ذلك أصبحت حضارتنا من غير شك أعظم الحضارات وأدومها.

الفهرس

مقدمة الترجمة ٥

تمهيد ٧

الفصل الأول: كبار المعلمين الدينين ٣١

الفصل الثاني: قدماء المصريين واليونان وما صنعوه من أشياء جميلة ٤٥

الفصل الثالث: كشف الأشياء الجديدة ٧١

الفصل الرابع: كيف غير العلم أساليب الحياة ؟ ٨٧

الفصل الخامس: انتشار المعارف..... ١٠٣

الفصل السادس: اقتسام المال ١١٣

الفصل السابع: حضارتنا ١٢٣